

رواية

عادل إبراهيم

سلسلة السيف



فضاءات  
للنشر والتوزيع



سلطة السيف

رقم الإيداع لدى دائرة  
المكتبة الوطنية  
2010/5/1407

813،9

ابراهيم، عادل  
سلطة السيف، عادل ابراهيم : عمان: دار فضاءات 2008  
الواصفات: الروايات العربية/ العصر الحديث.

\* إحت دائرة المكتبة الوطنية بيانات التبرسة والتصنيف الأولية.  
\* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هنا  
المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-30-159-0



الطبعة الأولى: 2010

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

سلطة السيف - عادل ابراهيم - العراق

دار فضاءات للنشر والتوزيع - المركز الرئيسي

عمان - شارع الملك حسين - مقابل سينما زهران

تلفاكس: (+962-6) 4650885 هاتف جوال: (+962)777/911431

ص.ب. 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail: Dar\_fadaat@yahoo.com

Website: http://www.darfadaa.com

التوزيع في تونس:

فضاءات للنشر والتوزيع - فرع تونس

شارع الهادي نويرة . النصر II - تونس 2037

تلفاكس: 21 82 65 70 (+216) - الجوال 39 42 29 98 (+216)

E.mail: fadhahet\_ed@yahoo.com

Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة  
المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع

عادل إبراهيم

سلطة السيف

رواية



مضات  
للطباعة والنشر

## الاهداء

إلى : والدي طه ياسين روحا

وإلى : حبيبة العمر وخط دفاعي الاخير .. شوخم

وإلى ثروة حياتي : اولادي ابراهيم وعلي وعائشة

واجمل ما في العمر .. احفادي ياسين وعراق وحمزة

وإلى أصدقائي الذين لم اخذهم ابدا .....

والصديق الفاضل عاطف قعوار .....

ليس لدي غير الكلمات اهديها لكم ... مع محبتي

(1)

انصرم يوم الخميس، وها هو نهار جديد، غطَّ عبد الله في نوم عميق الليلة الماضية، ولم يفق إلا بعد أن تسربت أشعة الشمس إلى غرفته لتوقظه. هض سريعاً ليفتح النافذة، صاحت به زوجته أمل: لماذا تفتح الستائر؟ — لأرى تفتح أزهار يوم جديد.

نظر من خلف النافذة، يراقب الطريق الذي دبت فيه الحياة، ردّد مع نفسه وهو يتذكّر سهرته الليلة الفائتة مع أصدقائه:

— أحياناً، الغيبوبة، التي نسميها الحلم، والشعور بالنشوة تقرب بين الناس، بفعل قوة خفية مؤثرة، ولكنها لا تلبث أن تبتدّهم، بعد الصحو. راح يجيل النظر في الأفق البعيد، لفّه شعور غريب، تذكّر صديقه سالماً، جسماً نحياً ووجهاً شاحباً وعينين غائرتين، تساءل:

— كيف يدبّر معيشته في هذه الظروف الصعبة؟ فهو متزوج ولديه طفلة صغيرة، لم تتجاوز السنة الرابعة من عمرها، ويسكن مع زوجته وابنته وأخته وأمه في غرفة ضمن منزل صغيرة، لا تتجاوز مساحته المائة متر مربع، تشاركه فيه عائلة أخرى تسكن الغرفة الثانية في البيت.

حدّث نفسه: كيف كنت غافلاً عنه طوال هذه المدة السابقة؟ فراتبه لا يكفيه لمنتصف الشهر على أبعد تقدير.

ولكن أين يجد له مكاناً ليعمل فيه دواماً مسائياً إضافياً لدوامه الصباحي في وزارة الإسكان؟

أدرك عبد الله أنّ سالمًا كان دائماً حزيناً ومُتعباً وضيق الصبر، ولكنه فهم أيضاً أنه كان محقاً في حزنه، فلقمة العيش أصبحت صعبة المنال في هذا الوقت العصيب.

كان عبد الله يشعر أنّ سالمًا ينتابه الخوف وهو يترقب بداية كل شهر. وقد سمع سالمًا يقول إنّ أهياره بات وشيكاً، وإنه بدأ يغضب كثيراً عندما تشكو له زوجته حالها واحتياجاتها لبعض ضروريات الحياة.

قال عبد الله: إنه يعاني من خيبة الأمل الدائمة.

وكثيراً ما كان يحاول تهدئته، ويربت على كتفيه، ويقول له: إنك تخطئ بحق نفسك، ولا بدّ أن تحلم بعيداً عن واقعك الأليم.

ردّد مع نفسه: أشعر بتأنيب الضمير لعدم مشاركته في إيجاد حلّ لأوضاعه، وتركه وحده على هذا الشكل. ولكن أين يجد له عملاً إضافياً يساعده في توفير بعض احتياجاته الأساسية، ويسعده وهو يداعب طفلة الصغيرة، التي تشكل حلمه الجميل؟

قرّر عبد الله أن يوظفه في دائرته بدوام مسائي إضافي. ومدّ يده وتناول هاتفه واتصل به:

— السلام عليكم.

— عليكم السلام.. كيف الحال؟

— سالم، غداً تبدأ الدوام المسائي

بدوام مسائي أنت ومحمدًا، عسى أن

ساد صمت بينهما، ثم سمع

خلع عن نفسه ذلك الهدوء والصمت

— تمنيت أن أكون بقربك لأقبلك

— لا تقبلي، ولا هم يجزون،

الآن.

— أنت أدخلت نسمة منعشة إلى

انتهدت المكالمة، وشعر عبد الله بفراغ

كان سالم يحس أنّ عبد الله ليس

رغم ما يشعر به أحياناً من عدم الرد

انفعالاته الحادة مع الآخرين، وكثيراً

— لماذا هذا الحزن يلفّ روجي

أحس أيضاً أنّي هزمت هذا الزمن، لا

أني إنسان ذو قيمة، لكنه عاد وهزمت

عينيك اكتشف نفسك فلن تجد سعادتك

ولكن هل أسمى هذا شعوراً محزوناً؟

كان سالم رجلاً خلوقاً، رقيقاً،

الآخرين أو لسخرتهم وغالباً ما يكذب

— سالم، غداً تبدأ الدوام المسائي بدائرتي، فقد قرّرت أن أوظّفك بدوام مسائي أنت ومحمدًا، عسى أن يوفر لك ذلك موردًا إضافيًا.

ساد صمت بينهما، ثم سمع عبد الله، سالمًا يضحك بلا توقف وقد خلع عن نفسه ذلك الهدوء والصمت اللذين مرّا لثوانٍ:

— تمّنت أن أكون بقربك لأقبلك.

— لا تقبلني، ولا هم يحزنون، داوم مع شرط أن تضحك كما أنت الآن.

— أنت أدخلت نسمة منعشة إلى روحي.

انتهت المكالمة، وشعر عبد الله بفرح ينعش عقله ويسعد روحه.

كان سالم يحس أن عبد الله ليس مديرًا لدائرة، وإنما هو بصيص أمل، رغم ما يشعر به أحيانًا من عدم الرضا عندما يسمع منه كلامًا لا يريجه عن انفعالاته الحادة مع الآخرين، وكثيرًا ما كان يسأل نفسه:

— لماذا هذا الحزن يلفّ روحي؟ ها أنا قد تجاوزت الثلاثين، ولكني

أحس أيضًا أنني هزمت هذا الزمن، لا، وأكثر من ذلك أشعر في أغوار نفسي أنني إنسان ذو قيمة، لكنه عاد وهزّ يديه وعاد يكرّر: حدق في (بؤبؤ) عينيك اكتشف نفسك فلن تجد سوى إنسان مهزوم بهمومه وقوت يومه. ولكن هل أسمى هذا شعورًا محزنًا؟

كان سالم رجلًا خلوقًا، رقيقًا، وهو مثل كلّ البسطاء عرضة لاستغلال الآخرين أو لسخرتهم وغالبًا ما يكون ردّه عن كلّ ذلك انفعالات حادة

وسخرية من ضعفهم أمام مَنْ هم أقوى منهم ممن يستغلونهم ويمتصون قدراتهم ثم يصفونهم جانباً.

وفي مساء منعش جلس سالم في غرفة استعلامات الدائرة ينظر عبر الشباك إلى ممرٍ طويل تحيط به الأشجار من جانبيه. ورود حمر وصرير وبيض تتوزع المساحات بين تلك الأشجار. إلا أنَّ سالمًا لم يجد من وراء هذا المنظر سوى ألوان تضاد بعضها وشجر مضت به السنون طويلاً وسيتهي إلى الياس يوماً ما.

أدار نظره مبتعداً عن الشباك، وشعر أنَّ جدران الغرفة بدأت تضيق من حوله، وتخنقه أحاديث الحراس الآخرين عما سيحدث في الأيام القادمة. قال أحد الحراس: الحرب قادمة لا محالة.

أجابه آخر:

— لن تكون أكثر قسوة من الحروب التي قبلها.

— لا هذه المرة ستكون قاسية، وستنتهي بهزيمة.

كان سالم ينقل نظراته بينهما وملامح وجهه تشدد عبوساً من حدة تأزمه، ولأنه لم يكن يعرف وصفاً للذي سيحدث، أو يستطيع أن يتخيل ما الذي سيكون، فإنَّ مثل هذه الأحاديث تزعجه.

قال: أليس لديكم موضوع آخر تتحدثون فيه؟ هل أصبحتم قادة عسكريين تتوقعون وتصرحون فيما ليس لكم فيه علم.

ترك الغرفة بسرعة وعصبية إلى الساحة المقابلة للباب الخارجي، وأتكام على الجدار، بانتظار قدوم عيد الله.

عاش سالم في حوارى منطقة شعبية فى بيت صغير، لعب فى طفولته فى أزقتها، فالبيوت الضيقة تلفظ أطفالها وشبابها إلى الشوارع والأزقة، وخاصة فى أوقات ما بعد الظهر، أصدقائه قليلون، فهو صريح، ولا يتحمل من يكذب عليه، فالإنسان عنده كريم بمقدار صدقه.

تعرف على محمد الذى يعمل فراناً فى المنطقة. فى البداية كان متوجساً من هذه العلاقة كعادته. فلم تكن واضحة له، ولكن أحاديثهما المشتركة قربت المسافة بينهما، إلا أنه أحياناً يحس بالانزعاج من كثرة نصائح محمد له.

قال سالم مرة منفعلًا: هل تريدنى أن أكذب؟ سأغلق فمى من الآن فصاعدًا.

— أنا لا أطلب منك ذلك، مثلما لا أرى أن تكون طرفاً فيما ليس لك فيه شأن فرما يعرضك ذلك إلى ما لا يرضيك.

نظر سالم إليه وكأن عاصفة من الأفكار اجتاحتها، إذن، هكذا.. نرى الخطأ ونسكت عنه وننظر لما يحصل حولنا نظرة لا مبالية، ونتوقع أن تكون هائتينا حسنة.

— أية نهايات حسنة تتحدث عنها؟ النهايات تكون حسنة عندما يكون ما سبقها سيئ.

— إنَّ ما تقوله يربكني ويشعري أنَّ أيماننا القادمة ستكون قاسية.

— هدى من روعك، ولا تشغل تفكيرك بما سيحدث غداً.

— لقد أخافتني أحاديث الحراس، كلَّ شيء يبدو أنَّه يتجه إلى حرب جديدة.. إلى خوف جديد وقلق في النفوس وإلى صمت يخيم على أحاديثنا، وتحوّل وجوهنا إلى الحزن والشجاعة والمرارة واللهاث وراء الأمل في ساحات الحرب البشعة.

استرسلا في حديثهما مدّة طويلة، إلاَّ أنَّ سالماً توقف عن الكلام، أحسَّ وكأنه يرى محمداً للمرة الأولى، يتفرس في تفاصيل وجهه، وحركة يديه، والعرق يتصبب من وجهه، وبدا عليه اليأس، ولا بد من أنه يلوم نفسه لأنَّه بدأ حديثاً مع محمد لا يعرف نهايته.

الصمت حلَّ بينهما، وقفا وحيدين في الفناء إلاَّ أنَّ محمداً أنهى صمتهما:

— لا بدَّ من أن نخرج من هذا المأزق.. لا بدَّ من ذلك.

— إذن، ننتظر حدوث معجزة لتحقيق ذلك.. ولكن أين هي المعجزات؟ لم تعد موجودة، وإن وجدت لا بد من أن تحدث بشكل عكسي.

تأخر عبد الله ذلك اليوم في الجيء إلى الدائرة.. وسالم لا يستطيع الاستقرار في مكان واحد.

سأله محمد: لمَ أنت قلق؟ سيأتي حتماً. تعال نتمشَّ نشمَّ رائحة الأرض والورد والشجر، ونكحلَّ عيوننا برؤية هذه الطبيعة الجميلة.

— اتركني رجاءً.  
— لو لم نحتفظ بـ  
— وصدت حواسنا.

— وهل بقيت لنا  
— قطع حوارهما و  
— لقد تأخرت.

— كنت في الوز  
— لمعت عينا سالم،  
— حوار الحراس في الغر

— أتتوقع حصول  
— الحرب قادمة  
— الحرب والموت

— التفت إلى محمد.  
— أما زلت تحس  
— تناول سيجارة م

— لم لا أكون ر  
— بي صور الماضي ولا  
— أجابه محمد: لا

— الإنسان.. الحياة ما ز

— اتركني رجاءً.

— لو لم نحتفظ بإحساسنا البسيط بالجمال، كنا اندثرنا منذ زمن طويل،  
وصدت حواسنا.

— وهل بقيت لنا حواس كي تصدأ؟

قطع حوارهما وصول عبد الله مع بداية غروب آخر ضياعات النهار.  
— لقد تأخرت.

— كنت في الوزارة، هناك توجيهات طوارئ تحسباً لما قد يحدث.

لمعت عينا سالم، وأحسَّ وهلة أن خطراً قادماً يدهمه، ما جعله يستعيد  
حوار الحراس في الغرفة.

— أتتوقع حصول شيء؟

— الحرب قادمة لا محالة.

— الحرب والموت يلاحقاننا.

التفت إلى محمد.

— أما زلت تحس بالجمال؟

تناول سيجارة من جيبه، واستغرق في صمته وتساءل:

— لم لا أكون راضياً؟ أوضاعي سيئة نعم، ولكن لدي عمل. فلم تحمق

بي صور الماضي ولا أستطيع إلا التفكير فيها.

أجابه محمد: لا تقلل من قيمة نفسك. فقدان الإحساس يقلل من قيمة

الإنسان.. الحياة ما زالت جميلة يجب أن نحياها، لا أن نمتلكها.

لم يفهم سالم ما أراد أن يوصله إليه محمد، لكنه طاف طويلاً تلك الليلة  
في الطرقات قبل أن يدخل إلى البيت، ولم يجد رغبة في النوم، كانت أنظاره  
مركزة على الشمس، وإحساسه يدلّه أنّ الأيام القادمة ستقوده إلى مجهول. رأسه،  
فالكل يتحدث عن الحرب وعن استعدادات الطوارئ. ولكن كيف سيستعد  
هو، ولمن يترك شمساً ابنته الصغيرة وما الذي سيتركه لها.

قاربت الساعة الرابعة والنصف صباحاً، والنعاس لم يداعب جفونه.  
فيما بدأت السماء تضيء بعبق رائحة الصباح. سمع أذان الفجر من المسجد  
القريب من داره. شعر براحة وربما بطمأنينة بعد قلق الليلة العجيبة. تحدث  
مع نفسه: لنتركها على الله.

ورغم عدم نومه، إلا أنه أحسّ ببعض الحيوية، وهو يغادر بيته إلى  
دوامه الصباحي حيث يعمل موظفاً في وزارة الإسكان والتعمير في منطقة  
علاوي الحلة، لا يتذكر أنه تأخر يوماً عن دوامه أو تجرأ أن يزوغ دون أن  
يكمل دوامه.

لاحظ سالم وجود حركة غير اعتيادية في الدائرة هذا اليوم، والإعلان  
عن أسماء الموظفين الأساسيين المطلوب دوامهم في حالة الطوارئ، لكنه لم  
يجد اسمه بينهم. ما أثار اعتراضه وسخطه وهو يتحدث إلى مسؤول شعبته:  
— يعني الآن صرنا غير مهمين، العبوا فيها بكيفكم.

هزّ رأسه وخرج من الغرفة يتملكه شعور بأن ما سمعه أمس في دائرة  
عبد الله، أصبح الآن حقيقة. وهذا ما جعله يقلق ويشعر بصداق حادّ في  
رأسه، وتمنى أن ينتهي الدوام سريعاً حتى يقابل عبد الله ويسأله عمّا يجري.

\*\*\*

رغم قلقه، والأفكار والاحتمالات الكثيرة التي تدهم عقله وترهب  
روحه، إلّا أنّ عبد الله قرر أن يقضي الليلة مع زوجته أمل وابنته مريم في  
بيتها عسى أن يثمر هذا اللقاء سعادة ظلّت غائبة عن روحه. كان القمر  
قد اعتلى قبة السماء، فيما انعكس ضوءه على الشجيرات في حديقته  
الصغيرة.

جلس الثلاثة على الطاولة، لاحظ فراشة صغيرة بلا حراك على الطاولة.  
قال لنفسه: إنّه فال سيء.

إلا أنه حاول أن يجعل منها موضوعاً للمتعة فقال:

— انظروا إليها، تأملوا أجنحتها، إنّها جميلة ولكن مأساها أنّها تعيش

يوماً واحداً فقط وبعده ينتهي كلّ شيء بالنسبة إليها.

قالت أمل:

— إنّها لعبة الموت والحياة. فلا شيء يبقى كما يبدو، انظر كيف  
يفقدها الموت لمعان اللون، أنا الآن أدرك أنّ الموت يبدأ مع بدايات الولادة  
فهي الخطوة الأولى باتجاه النهاية. تعرف، لا بدّ للإنسان أن يتمتع بهذه  
الحياة، يفرح بعمله وبالطريقة التي يختارها للوصول إلى أحلامه، وبسعادته

ويتمتع بالطبيعة والكون عبر السفر إليها من خلال التعلم أو اللقاء بهم في أماكن ولادتهم حيثما وأيما يكونون، هي رحلة غنية بمعارفها وعلومها ومتعتها ومعرفتك بنفسك والآخرين.

أتذكر سنين زواجنا الأولى؟ كانت سنوات السبعينيات تملؤها الأمان والأحلام كنا مثل كل الناس مملوئين عنفواناً ورغبةً في الحياة، لكن ذلك لم يدم طويلاً.. بدأت الحرب مع إيران ثم حرب أخرى، وتلاها حصار قتل أرواحنا ومتعنا وعقولنا.. وها نحن ننتظر أخرى.

— آباؤنا يروون حكاية هي أقرب إلى الطرفة، أن رجلاً سافر إلى بلد أوروبي، وتصادف أن زار مقبرة هناك، فلاحظ أن شواهد القبور كتب عليها فلان الفلاني ولد سنة كذا وتوفي سنة كذا وعاش كذا سنة فقط، فاستفسر كيف أن شخصاً عمره ستون عاماً يعيش عشر سنوات فقط؟

أجابوه هي السنوات التي وجد فيها متعة الحياة، فقال لهم: إن صادف ومث عندكم اكتبوا تاريخ ولادتي ووفاتي مع عبارة من "بطن أمه للقبير".  
أجابته: ليس الأمر بهذا الشكل، فقد عشنا سنوات جميلة، ولكن النهايات تبدو تعيسة.

— يا سيدتي، الزمن لا يرحم، ولا يتوقف عند لحظة أو وقت محدد فأنت تستطيعين أن توقفي حركة أي شيء، لكنك لا تستطيعين إيقاف هذا الزمن.. والحياة عادة تمنحنا فرصاً كثيرة، الشاطر فينا من يمتنعها ليقفر بها إلى أمام، لا أن تلعب بنا أهواؤنا وكأننا بداية العالم ومنتهاه. ليس هناك

خلود لأحد، كلكامش الذي بحث عنه في أصقاع الأرض لم يجده، حصل عليه بطريقة أخرى، فهو ما زال موجوداً بيننا يذكرنا بأجاده وتاريخه وعبقريته وتراثه. فالبشر ليسوا أزليين ولكن ما يتركونه من آثار إبداعاتهم وجهدهم هو الذي يبقى.

انتبه إلى أن مجرى حديثه قد أخذ مديات كان يودُّ أن لا يخوض فيها فالتفت إلى أمل قائلاً:

— ما رأيك بهذه الثثرة التي لا فائدة منها الآن، أيتها الزهرة الراقصة على وجه الماء؟

ضحكا معاً، قالت أمل: لقد اشتركنا في الثثرة.. اتركها الآن، وانظر كم القمر جميل هذه الليلة.

\*\*\*

الأيام مضت بسرعة، وسالم لا يمتلك إلا القلق والحيرة، وعدم الصبر على ملاحقة التطورات.

كان شهر آذار بداية للربيع، ولكنه لم يجد فيه إلا أياماً مغبرة فقدت ألوانها، فقد اصطبغ كل شيء بلون الغبار ودخان الإطارات والنفط الأسود الذي أشعل في مناطق متعددة ليوفر غابة من الدخان الأسود في سماء بغداد.

— لم يُشعلون هذه الإطارات والنفط الأسود؟

أجاب محمد: للتمويه على الصواريخ والطائرات.. إنها الحرب، يستخدم فيها كل شيء. لا توجع رأسك بالتفكير واكتف بالسخام الذي يغطي وجهك.

لم يعجبه كلام محمد ودمدم مع نفسه:  
— ما بقي إلا هو يتفلسف عليّ.

لم تمض تلك الليلة بهدوء فم  
2003/3/21 شرعت جيوش أمر  
وبدأت صواريخهم تطلق من كل مكان  
الإنداز تترج مع أصوات انفجارات ال  
الأرضية. ليلتها كان عبد الله وسالم  
لمكتب عبد الله.

— إنها الحرب.

خرجوا معاً إلى الساحة، ينظرون  
رؤيته سوى وميض الطلقات المتصاع  
تترك خلفها كتلاً من نيران مشتعلة.  
قال سالم: أشعر كأن السماء ترع  
بعضهم يضع ضلوعه سياجاً لأرضه،  
يرى.. يا للجنة لا أريد التفكير أكثر في  
الحرب الأولى. الله ما أبشع الحرب،  
يتسربان إلى نفوسنا وتستحيل وجوهنا  
الشجاعة، المرارة، الواجب، حب الخ  
ربيع شباهما.

(2)

لم تمض تلك الليلة مهدوء فمع بدايات الفجر الأولى من يوم 2003/3/21 شرعت جيوش أمريكا وبريطانيا بالزحف نحو العراق وبدأت صواريخهم تطلق من كل مكان إلى كل مكان. أصوات صفارات الإنذار تمتزج مع أصوات انفجارات الصواريخ ووميض القذائف والمضادات الأرضية. ليلتها كان عبد الله وسالم ومحمد يجلسون في الغرفة الملاصقة لمكتب عبد الله.

— إنها الحرب.

خرجوا معاً إلى الساحة، ينظرون إلى السماء، لم يكن هناك ما يمكن رؤيته سوى ووميض الطلقات المتصاعدة إلى السماء، وأصوات انفجارات تترك خلفها كتلاً من نيران مشتعلة.

قال سالم: أشعر كأن السماء ترعد بحق.. وإنّ هناك الآلاف من البشر بعضهم يضع ضلوعه ساجاً لأرضه، وبعضهم يمتلكه الرعب من هول ما يرى.. يا للجنة لا أريد التفكير أكثر في كل هذه الأمور، فقد تدوقتها في أيام الحرب الأولى. الله ما أبشع الحرب، أتذكر الآن كيف كان الخوف والقلق يتسربان إلى نفوسنا وتستحيل وجوهنا إلى وجوه جند واجمة، أحالها الحزن، الشجاعة، المرارة، الواجب، حب الحياة والأمل، إلى وجوه هرمة وهي في ربيع شباهما.

قال محمد: ذكريات الحرب تظلّ تلاحقك حيثما تكون ولا تتركك  
بعكس الذكريات العابرة تستفيق في لحظة ثم تختفي حالاً.

توالت الأيام، وتسابقت التطورات، كان فيها محمد حريصاً على  
الاتصال بأصدقائه لمعرفة أماكن وقوع الصواريخ والقذائف وقصف  
الطائرات، فيما كان سالم لا يبدو مهتماً بذلك.

كان عبد الله حريصاً على أن يعرف الموقف العسكري من خلال  
صديقه حميد الذي أحيل على التقاعد قبل سنوات برتبة لواء ركن، كان  
يومها أحد قادة قوات الحرس الجمهوري.

سأله عبد الله يوماً عن سرّ هذا التقدم السريع لأرتال القوات الأمريكية  
فيما لم تستطع القوات البريطانية أن تحتل جزيرة صغيرة في الجنوب العراقي  
إلا بعد قتال شرس مع القوات العراقية دام أكثر من أسبوع، عدد قليل من  
الجنود والضباط قاتلوا ببسالة وبدون غطاء جوي أو إسناد في مواجهة  
القوات البريطانية الأكثر عدداً وعدة، حديثة ومتطورة.

— إنهم يأخذون طريق الصحراء حيث لا توجد قوات عراقية أساسية  
هناك في ظلّ عدم وجود غطاء جوي، وهدفهم بغداد.

هم لا يورطون أنفسهم الآن بالدخول إلى المدن، إلا في حدود ما يخدم  
هدفهم المركزي وهو الوصول إلى بغداد بأسرع الطرق وبأقل الخسائر، هم  
يواجهون مقاومة، ولكنها لا تستطيع إيقافهم في ظلّ الغطاء الجوي المتوفر

لديهم. ربّما سيصلون خلال مدة قصيرة إلى بغداد، وستكون المعركة الأساسية.

أصبح عبد الله وسالم ومحمد وعدد من موظفي الدائرة لا يغادرونها، عدا ساعات قليلة يذهب فيها سالم إلى بيته يحمل لعائلته بعض الاحتياجات التي يوفرها لهم.

في إحدى أماسي تلك الأيام الصعبة هزّ انفجار المكان الذي كانوا يجلسون قربه، تناثر أثاث الغرفة على الأرض. وشعر سالم أنّ زلزالاً، أصاب المكان. حلق بعينين جامدتين إلى محمد:

— لم أكن أتوقّع أن يصلنا القصف.

— توقع كلّ شيء.

رويدا استعاد سالم صفاء ذهنه، وبعناد تقدّم باتجاه غرفة عبد الله:

— هذا اليوم يختلف عن بقية الأيام.. الانفجارات كثيرة والقصف شديد.

— لا تكثر، ستخطئ ذلك، لقد أخبروني أنّ ابن عمي أصيب بالقصف المعادي، ولم تنفع كلّ المحاولات لإسعافه، فقد خطفه الموت.

تناول سالم سيجارة من جيبه، واستغرق في تأملاته:

— لم لا أكون راضياً بقدري؟ ولكن لمن سأترك شمس.

\*\*\*

في العاشر من نيسان 2003، الدبابات الأمريكية تحتل بغداد،  
والطائرات المقاتلة والسمتيات تجوب أجواءها، وسالم لا يصدق ما يرى،  
دخل على مكتب عبد الله، وجده وجهاً بلا ملامح، وإنساناً فقد حيويته. لم  
يكن قد تعود أن يراه بهذه الحال:

— ما العمل؟ هل نستمر بالبقاء في الدائرة؟ أنا منذ يومين عرفت أن كل  
شيء انتهى، ولكني لم أخبرك.

— كيف عرفت؟

— تتذكر قبل يومين.. أخبرتني بأنني سأغادر الدائرة صباحاً لساعتين

للذهاب إلى البيت؟

— أتذكر.

— لم أذهب للبيت بل إلى دائرتي.

— ولماذا ذهبت؟

— لكي أتسلم راتي من الدائرة.

— وهل تسلّمت الراتب؟

— أي راتب؟ وجدت دبابة أمريكية في باب الدائرة فرفعت يدي

للأعلى وخفضت رأسي ودخلت الدائرة.

— وماذا حصل؟

لم أجد سوى حارس واحد فقط في الدائرة. ولما عرف أنني أريد تسلّم

الراتب، استهزأ بي، وقال: معقول أنت تريد تسلّم الراتب؟ هل أنت مجنون؟

الدنيا انقلبت فوق تحت، وأنت تريد الراتب!

— معقول يا سالم في مثل هذه الظروف تذهب للدائرة؟

انزعج سالم من تساؤل عبد الله، وقال مع نفسه:

— ألا يدري عبد الله أنني أحتاج الراتب. لكنّه استكمل حديثه معه:

— لم أجد أحداً من الموظفين في الدائرة.. إذن ما فائدة خطة الطوارئ؟

أين هم الموظفون المهمون؟ ولا واحد منهم موجود.

ليس هذا فقط بل وجدت أناساً يخرجون من الهيئة العامة للسياحة ومن

المتحف العراقي القريين من الوزارة وهم يحملون أثاثاً وأغراضاً أخرى.

لم يعلق عبد الله على ما قاله سالم وساد صمت بينهما. هذا يوم ليس

مثل كل يوم، الشمس تترلق عالياً في السماء تحرب بعيدة.. وحيات من

تراب تضرب في كل مكان بسرعة وتكرار متعاقب، وعبد الله يظل واقفاً

ينظر عبر الزجاج الذي بدأ مُتسخاً بالتراب، ومواقع الحراسة في الدائرة بدت

نصف خالية، والآخرون يلتفون حول بقايا مواقدهم التي أشعلوها في الليل،

يخرج من مكتبه ويسير في الرواق مجهداً بلا هدف، لم يتملكه شعور مثل

هذا الذي يحسّه الآن: وطن مقتول وشوارع مزدحمة بالحطام.

\*\*\*

خرج عبد الله وسالم ومحمد من الدائرة بعد أن ألقوا التحية على الحراس

المتبقين، على أمل أن يعودوا في اليوم التالي لمتابعة التطورات.

استقلَّ عبد الله سيارته وركبا معه، أخبرهما بأنه سيوصلهما أولاً نوبة بكاء شديد،  
ينطلق إلى البيت لكن سالماً ومحمداً رفضاً ذلك بقولهما:  
المكان.

استطاع عبد  
— نريد أن نتأكد من سلامة وصولك إلى البيت، ولا تهتم لأمرنا.

انطلقت السيارة مارة بشارع عمر بن عبد العزيز في الأعظمية باتجاه  
ساحة عنتر، وعند نقطة مكتبة الصباح، سمع عبد الله صوتاً يناديه، توقف  
ونظر إلى النادي ونزل من السيارة وتحرك باتجاه زاوية الشارع.

— أهلاً كيف حالك؟

— أين تذهب؟

— إلى البيت.

ارجع واترك سيارتك في مكان آمن واهب مشياً على الأقدام، لأن  
الأمريكان يطلقون الرصاص على أي شيء يتحرك أمامهم.

— أين هم الآن؟

أنزلوا عرباتهم المدرعة ودباباتهم بوساطة الهليكوبتر في ساحة عنتر.

كان (قاسم) ما زال يحمل معه سلاحه RBG7 مع صاروخين.

عاد عبد الله إلى منطقة راغبة خاتون، وذهب إلى منزل صديقه الضابط  
المتقاعد، ترك السيارة هناك وسلك مع سالم ومحمد طريق العودة باتجاه  
شارع عشرين مروراً بأزقة منطقة الشيوخ في الأعظمية، حيث التقوا هناك  
صديقهم (وليداً) الذي ما إن رأى عبد الله حتى رمى بجسده باتجاهه وانتابته

وأحس أنه لم

نوبة بكاء شديد، فيما كان يسمع صوت القرآن في الجامع القريب من المكان.

استطاع عبد الله أن يهدئ (وليداً) بعد مدة، لكنه عاد إلى البكاء وصرخ في وجه عبد الله: لقد استشهد.

— من؟

— أحمد.

— أين وكيف؟

— قبل ساعات، كان مصمماً على أن يفجر دبابة أمريكية تقف في مواجهة جامع أبي حنيفة وتطلق النار من هناك، وجّه إليها القاذفة وضغط على الزناد لكن الصاروخ أخطأ هدفه، فأطلق عليه الأمريكان زخاتٍ من الرصاص فأردوه قتيلاً.

— أين هو الآن؟

— في الجامع.

دخلوا جميعاً إليه.

شعر أن الدم يتجمد في عروقه، نظر عبد الله إلى الجثة، أحسّ أن المكان ينبثق منه النور من كل زواياه، صاح:

— إنه لم يمض. مسح الدم من وجهه، ومسد شعر رأسه، ثم حمله من الأرض ووضعه على مسند خشبي وغطاه بدثار صوفي، وجلس إلى جانبه، وأحسّ أنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً سوى النظر إليه.

(3)

عاش عبد الله ليالي وأياماً صعبة.. الدخان ما زال يتصاعد من أماكن متعددة في بغداد، كان الوقت ظهراً، وأمل ما زالت تحاول إنجاز شؤون البيت في ظلّ انقطاع الكهرباء، ورغم انشغالها إلا أنّها حرصت على فتح المذياع بحثاً عن خير ما.

صاح عبد الله: أرجوك لا حاجة لنا بالمزيد من الأخبار.  
— الصمت موت، دعنا نسمع صوتاً.

بدأ الذباب والحشرات بالتكاثر بسبب انتشار الأزبال وانقطاع الخدمات البلدية، مثلما تزايد عدد الجنود الأميركيين في بغداد وساحاتها ومفتريات طرقها.

ولعبة السرقات والسطو على مؤسسات الدولة تتم تحت حماية النار الأمريكية.

شعر أنّه بحاجة إلى الخروج من البيت بعد أن وجد الشمس مشرقة والجو دافئاً نوعاً ما.

سألته أمل: إلى أين؟

— لا أدري.

نظرت إليه بعينين باسمتين، فرغم كلّ هذه الظروف الصعبة احتفظت ببشاشتها وتفانؤها. قالت: انظر، ما سأقوله لك في غاية الجدية، ماذا يفيد

الانكسار والضعف والحسرة. الحياة قصيرة وحبلى بالمخاطر والنكسات، علينا جميعاً أن نقف في وجهها متآزرين. يقولون إنَّ بعض الرجال سفن وحيدة في البحر، وأستطيع أن أقول شيئاً آخر: إنَّ الرجال لا يفقدون زمام المبادرة حتى وإن غادرتهم في وقت ما.

مشى عبد الله إلى الشارع العام، وكأنه ذاهب إلى مشوار ما، ولكن أي مشوار؟ لا يدري، حدّث نفسه:

— لقد كانت فكرة الخروج من البيت رائعة، فهذه الحركة أبعدت عني شعور المرارة الذي كنت أشعر به في هذه اللحظات.

كان الناس يتحرّكون في الشارع، بحثاً عن حاجة يتناعونها أو لمشاهدة ما يحصل أو لهدف آخر. لاحظ رجلاً يرتدي دشداشة مقلّمة بالأزرق، إنّه صديقه د. سلمان الأستاذ في الجامعة، أخذنا بعضهما بالأحضان.

قال د. سلمان: انظر، وأشار بيده إلى حافلة حمراء اللون تقف في الاتجاه الآخر، سرق منها اللصوص الإطارات ولوحات الأرقام والمحرك وباتت الحافلة مقعدة على الطريق.

— السرقات تحدث في كل مكان، وقد طالت كل شيء.

— لقد شاهدتهم ينهبون المتحف ودائرة الآثار ومؤسسة السياحة ومؤسسات الدولة. إنه عمل مخطط.. انهيار للفكر والأخلاق والقيم، انهيار لكل شيء. صمتا لحظة، تبادلنا خلالها النظرات بعدها قال د. سلمان:

— لا تخرج من البيت كثيراً، فلا شيء مضمون في شوارع بغداد، وانتبه إلى نفسك ولا تجعل السياسة تفسد روحك. ودعني أنقل لك ما كنت قد شاهدته في التلفزيون كان فلماً عن الإمبراطورية الرومانية فيه مقطع يتحدث فيه القيصر مع قائد جيشه، بعد فراغهم من سلسلة انتصارات عسكرية كبيرة. يقول القيصر لقائد جنده وهو يتطلع إلى خارطة إمبراطوريته: لقد قضيت أنا خمسة وعشرين عاماً من عمري في صنع ما تراه. كان منها عشرون عاماً من الدماء في سوح المعارك، ترى بماذا سيتذكرني شعبي: فيلسوفاً أو طاغية أو قائداً شجاعاً.

يجيبه قائد الجيش: أنت صنعت مجداً.  
فيقول الإمبراطور: كانت تلك سلطة السيف.  
وأسرع د. سلمان بالمغادرة.

\*\*\*

في اليوم التالي شعر عبد الله أنه لا يعرف شيئاً عن سالم ومحمد فقد انقطعت سبل الاتصال بينهم.

فقرر أن يزور محمداً فرّبما يجده في فرن الصمون الذي يعمل فيه براغبة خاتون.

ركض محمد باتجاه عبد الله عندما شاهده قادماً إليه، واحتضنا بعضهما، وكانّ عمراً طويلاً قد فصل بينهما. كان محمد يجھش بالبكاء وهو يحتضن عبد الله.

سأله: ما هي أخبار سالم؟

— ألم تسمع عنه شيئاً؟

— لا.. ماذا حدث؟

— قبل أسبوع جاء سالم إلى الفرن كعادته كل يوم، يقف صامتاً لا غادر يتحدث، ينظر إلى الناس، وكأنه يراهم للمرة الأولى، كان حزيناً، يشعر أن لكان: ه الدنيا تضيق حوله. بقي نحو ساعة، وقرر العودة إلى بيته، وبالمصادفة كان بر إلا و صاحب الدكان الذي بجوار الفرن يريد الذهاب إلى منطقة الصليخ حيث اسقاً، و يسكن سالم، فصعد معه في سيارته.

أحسَّ عبد الله من سياق الحديث أنَّ خيراً سيئاً بانتظاره، وبدأ يشعر صور بالقلق: وماذا حصل بعد ذلك.

— بعد ساعتين جاءنا خبر أنَّ الأمريكان أطلقوا النار على السيارة قرب جسر الصليخ، ركضنا إلى هناك. كان سالم وصاحب السيارة جثتين هامدتين، وسالم يده ممدودتان على الأرض، ربما حاول أن يمسك شيئاً أو حاول النهوض قبل أن يلفظ أنفاسه.

بدأت شفتا عبد الله ترتجفان، وحالته توحى بأنه على وشك الانهيار.  
قال: سأذهب الآن.

— ليس الآن، اجلس قليلاً.

— لقد ظننت أني سألقاه معك.

— انتظرناك طويلاً، وتمنينا أن تسوقك قدماك إلى هنا.. كان ينتظرك.

شعر عبد الله أن عينيه المليئتين بالدموع لا تريان إلا ضوءاً أصفرَ يعمي

لعيون.

قال سأغادر، أريد أن أبقى وحيداً.

قف صامتاً لا غادر الفرن وحيداً لا يرى مما حوله إلا ضوءاً أصفرَ، وصوتاً يعلو في  
زينا، يشعر أن لكان: هذا شرٌّ مستطير، ينثر الموت، لا نخلة ستبقى إلا وانحنى جذعها ولا  
بالمصادفة كان نحر إلا وامتلاً بالدم، فارفعوا اليد جنب اليد سدّاً بوجهه حتى يظلّ النخل  
الصليخ حيث باسقاءً، ويبقى صوت المغني عند ضفة النهر شارة للعاشقين الماضين إلى  
حيياتهم.

ه، وبدأ يشعر صوت وضوء، وعبد الله تخونه الخطوة، والطريق إلى بيته أصبح طويلاً.

السيارة قرب

السيارة جتتين

بمسك شيئاً أو

ك الأهيار.

كان ينتظرك.

(4)

كان يحدث نفسه عما آلت إليه ظروفه الجديدة وإحساسه بأن وقته أصبح ملكه، ولكن بعد فوات الأوان.

هو دائماً يتذكر أنه لم يعيش حياة ناعمة، وكان زمنه اليومي مثقلاً بالواجبات والعمل المرهق. وكثيراً ما أحسَّ بالرتابة، وكان يفرح كثيراً عندما كان يستطيع أن يفلت أحياناً من محيط روتينه اليومي.

هو الآن يطلق العنان لذاكرته، تحضره صورة صديقه رياض، عندما خرجاً معاً في عصر يوم ربيعي إلى منطقة المنصور. انبهر من رؤية الطريق الذي ينبض بالمارة والمحلات المضاءة على الجانبين، فيما بدت السماء الواسعة بلون أرجواني تمتزج مع أضواء الشارع.

— نسيت هذا المنظر، لم أعد أراه، فأنا أكون في العمل المسائي منذ الرابعة عصرًا، ولا أخرج منه قبل العاشرة ليلاً.  
ردّ عليه رياض:

— أجدنا عندما يكون أسير رتابة أيامه، تسعده نسيمات الحريرة التي يقتنصها في لحظة عابرة.

ظلَّ عبد الله مبهوراً بما يراه وصامتاً.

انتبه رياض إلى صمته:

— هل ترى المكان للمرة الأولى؟

— لم يبهري المكان، فأنا أراه كلَّ يوم، ولكن أدهشتني الحياة فيه. كنت  
أجد في السفر فرصة للابتعاد قليلاً عن إرهاق العمل، ولكنني ما إن أعود،  
حتى أحسَّ بأنَّ مدَّة غيابي كانت طويلة.

— هكذا هي الحياة، حتى الذكريات تصبح أحياناً شيئاً غير أكيد.  
— إنَّ من الشقاء أن لا يجد المرء فسحة من الوقت ينغمس فيها في  
مهرجان الحياة المتوهج.

قال رياض:

— دعني أحدثك عن سفرة قضيت فيها أياماً عذبة.

— نستمع ما دامت أياماً عذبة.

— كان الطريق إلى ألمانيا يمرُّ عبر بيروت التي وصلناها ظهرًا. وبدأنا  
رحلة التسكع، مكان يقودنا إلى آخر، بعد أن ازدحمت ذاكرتنا شوقاً جسدها. وقلت مع  
باللقاء.

لم يكن النوم قد مرَّ بنا في آخر الليل.. ومع أوَّل الصباح كُنَّا في الطريق  
إلى المطار لنحطَّ في بون.

— أعتقد أن بون مدينة لا صخب في حياتها.

— إنَّها تروق لي، فهي تنبض بالهدوء، في المساء بدت الأشياء صامتة في  
المدينة، وشعرت أن الفندق الذي أقيم فيه أشبه بيت ريفي وسط غابة الأشجار.

— كانت أضوية الشارع تنساقط من أعمدها مترافقة مع حبات مطر تنثر  
روحاً في الساحة المقابلة للفندق.

كنت أعود،  
فيما اتخذ عازف كيتار مكانه تحت عمود النور.  
ضوء وبداية ليل ونثار من مطر وموسيقى تراقص النور.

قال عبد الله:

— لا ينقص اللوحة إلا الوجه الحسن.

فيها في  
استمرّ رياض:

— جلست على أحد المقاعد، وأحسست أنني وحيد في المكان مع  
عازف الكيتار، انتهت إلى حركة قريبة مني، نظرت، وجدت امرأة من  
نور، وجه يتلألأ مع الضوء وقطرات المطر.

— إذن، اكتملت اللوحة.. وماذا بعد؟

وبدأنا  
شوقاً جسدها. وقلت مع نفسي:

لا بد أن أقرب منها، فالرفقة مع هذه اللحظات لها مذاق آخر.

الطريق  
لكنني ترددت في البدء بالخطوة الأولى، لكنّها التفتت وألقت التحية  
بحركة من رأسها. حينها لم أتردد في الذهاب عندها.

— هل تسمحين لي بالجلوس؟

— أنت عربي؟ قالتها بلهجة عربية سليمة.

— وأنت؟

شجار.  
مطر تنثر  
— أصلي عربي، لكنني أحمل جنسية أخرى. واستمرت في الحديث. مخيلة  
منقولة بالذكريات راحت تعيد صورها وتشرها.

— إنك امرأة وقعت في هذه اللحظة في شباك الماضي.

— ألم يس

— هذه لحظة حفرت عندي وهج التذكر وعذوبة أيام عشتها.. أجاب علي

صغاراً نلعب في أزقة حارتنا وكانت تمرُّ يوماً من هناك امرأة بدوية، عير — لا، فو

واسعة ورموشها مثل سعف النخيل، وابتسامة لا تفارق شفيتها الممتلئة بوجه من الم

أنوثة.

كانت تبيع أساور فضية، نشاهدها في الصباح وعند عودتها من السوق مؤشر الم

ورغم كل هذي السنين التي مرّت، أتوق إلى لقاء تلك البدوية، وأبحث كمان لأمس

الأسواق ومحطات المترو والشوارع المطرة عن إسوارة فضية، وعيون امر شعر أنه

عاشقة.

نظر إلى

لضوء بين أ

\*\*\*

فجأة أفاق عبد الله على أصوات انفجارات شديدة هزّ رأسه والتف

حواليه، وكأنه أفاق من حلم جميل.

قال:

— لعن الله الاحتلال فهو لا يكتفي بصدنا في الشوارع، بل يدهمنا

ذاكرتنا وأحلامنا.

أحسّ أنّ هذا الوجدع اليومي ليس له نهاية قريبة.

حاول أن يستعيد تلك الصور الجميلة من ذاكرته، لكنّه تذكر أنّه الآ

لا يعرف شيئاً عن مصير رياض بعد أن غادر وعائلته إلى سوريا.

همس مع نفسه:

— ألم يستعجل رياض في مغادرة البلد؟

أيام عشتها.. ك أجاب على سؤاله:

مرأة بدوية، عيون — لا، فهو لم يجد فرصة سوى المغادرة. منذ قتل أخوه الطبيب عند شفتيها الممتلئة بوجه من المستشفى الذي يعمل فيه، وأصبح همّه أخاه الأصغر الذي تخرج من كلية الهندسة. مضت سنة ونصف على سفره، دون أن يعرف أخباره. وودتها من السوق مؤثر المذيع الذي كان بجواره، سمع وصلة قصيرة لعزف منفرد على سوية، وأبحث لكمان لامست روحه.

سيرة، وعيون امرأ شعر أنه يحتاج إلى قليل من الدفء وإلى وجوه يألفها وأحلام جديدة. نظر إلى شجرة مزهرة في حديقته، أهرته ورود بيض صغيرة تلمع مع الضوء بين أغصانها. ومضى يُحضّر فنجاناً من القهوة وهو يردّد:

كلّ ما سيبقى لك هو الذكريات وأحلام ساجحة مع الضوء والمطر.

بل يداهننا في

تذكر أنه الآن  
يا.

(5)

لم تكن مساحة صالة المتزل واسعة، لكنّها تحوي عددًا من المقاعد، تراجها طاولة وضع عليها جهاز تلفزيون وعدد من الكتب والمجلات فيما توزعت أربع لوحات زيتية على الجدار الذي تقابله مرآة كبيرة وساعة حائطية وقطع صغيرة من السيراميك.

الصالة تمتد إلى المطبخ حيث يضمّ طاولة طعام تتوسطها مزهية فيها وردتان حمراوان، تحرص أمل على وجودهما، فهي ترى أن الورد الطبيعي يشعرها بجوية المكان وجماليته.

نظرت أمل إلى الساعة المعلقة على الحائط، لم يكن الوقت قد تجاوز الحادية عشرة ظهرًا. ردّدت مع نفسها: ما زال في الوقت متسع لإكمال الغداء. فجأة راحت تستذكر سارا زوجة ابنها علي، هل تعلمت فعلاً أصول الطبخ مثلما كانت تعلمها. ردّدت مع نفسها: سارا شاطرة. لكنّ قلقًا بدأ يساورها حول حفيدها حمزة ذي الأشهر العشرة، الذي سافرت به سارا لتلحق بزوجها.

قالت: يجب ألا تطبخ سارا وحمزة بجانبها فهو يتحرك بسرعة ويمسك أي شيء يجده أمامه وبدون سابق إنذار.

— لكنّي نُبّهتُ سارا كثيرًا بالاهتمام بحركة حمزة. ظلّت المخاوف تحوم حولها، لكنّها حسمت الأمر، وقرّرت الاتصال بولدها هاتفيًا.

— مرحبا علاوي، كيفك، وكيف سارا وحمزاوي؟

— مرتاحين، نسأل عنكم... أنا قلق علىكم من الأخبار التي نسمعها.

— الحالة والله غير آمنة.

أحسّت أنّها ربّما ستجعل علياً يقلق أكثر بهذه الإجابة، فسارعت

تقول:

— لكنّها ستتحسّن وكلّ شيء له نهاية.

غيّرت نبرة صوتها لتكون أكثر تفاؤلاً:

— سارا تطبخ بشكل جيد؟

— طبخها بمواصفات طبخك.

— وكيف هي أخبار حمزة؟ أنا قلقة من احتمال عدم انتباه سارا له أثناء

عملها في المطبخ. يجب أن تنتبه لحركته ورغبته في التعرف على الأشياء.

— لا تقلقي عليه فهو يتحرك بين رموش عيوننا وداخل شغاف قلبينا.

شعرت بفرحة تغمرها، وأهّمت المكالمة بالدعاء له بالتوفيق. ألقت

جسدها على أحد مقاعد الصلاة وراحت تستعرض صوراً في ذهنها تستشعر

من خلالها ظروف أولادها في الغربة.

كان عليّ رفيقٌ مشاويرها، هادئ الطبع كثير السؤال، أحياناً، يدي تحاول أن تلتقط أنفاً

انضباطاً في تحركاته دون أن يكون عرضة للنقد والتوبيخ وها هو يكبر وما

زال على هدوئه وحرصه على علاقاته مع أصدقائه، لقد كبرت معه كلّ

خصائص بداياته الأولى.

— ولكن هل العمر يستنبط من حوادث السنين وتجاربها روحًا خاصة  
تصاحب الإنسان في حياته مجلوها ومرّها؟

ولكن آية روح هذه التي تزهر في الغربة؟ والغربة هي عنوان المنفى،  
والمنفى هو حصار الرجال الذي يصنع مسافة بعيدة بين أمانهم والواقع  
الذي يعيشونه.

شعرت أنّ رموشها تبلّلت بالدموع، هُضمت من المقعد، ومشيت  
خطوات في الصالة كي تؤكد لنفسها أنّها صاحبة، وتأمّلت من خلف  
زجاج الشباك السماء الواسعة، مرّة أخرى شعرت بعدم الطمأنينة وقالت  
تحدّث روحها: الإنسان في هذه الدنيا يشعر أنّه يعيش وقتًا محدّدًا وفي لحظة  
يدرك أنّ ذلك الوقت لم يكن إلا ومضة ضوء خاطفة وسريعة، فيبأس على  
كلّ شيء يفقده. فقد أمضت سنوات عمرها وهي تربي أولادها، وتشقى  
حتى تزهر حياتهم وتنعم بهم وتفرح معهم ولكنّ العمر بدأ يضع من بين  
ضوء عينيها وصار من غير الممكن أن تكحلها بألوان أزهارهم.  
ما الذي أيقظ أحاسيسها هذه وهي مرتعشة القلب؟ لقد ادّعت طوال  
حياتها أنّها تحاول أن تبني أعشاش أولادها حول عشّها الكبير، وها هي الآن  
تحاول أن تلتقط أنفاسها وأن تمسك بالأمل الذي ادّعت طوال عمرها أنّه  
محور حياتها، وهو يهرب منها إلى بلاد بعيدة.

عادت واستلقت على المقعد، ونظرت إلى باب البيت الخارجي عبر  
زجاج باب الصالة المطلّ على حديقة صغيرة تشغل جانبي مدخل البيت،

فوجدت أن الجزء الأوسط منه مفتوح.

دعها  
تمرك إلى  
ابتها مريم،  
لم تجب  
هذه اللحظ  
يطمنها،  
هؤلاء الجن  
فتش  
تاركين آ  
بقيت  
صمتها و  
لم  
قطعت  
ذه

همت بالخروج لإغلاقه، لكنّها عادت عن ذلك. فجأة لحت ظلالاً وبسرعة حرّكت رأسها باتجاه الباب الخارجي. لاحظت وهي مستلقياً أرجل جنود يرتدون ملابس مرقطة وأسلحتهم بأيديهم يدخلون من الباب الخارجي، وشعرت بارتباك شديد، وبرودة تحترق جسدها الذي أصبح ثقيلاً وبدون تفكير صاحت: الأمريكان.

وركضت باتجاه غرفة النوم.

رمى زوجها عبد الله الكتاب الذي بين يديه وترك غرفة المكتبة متجهاً إلى باب الصلاة. راوده شعور أنهم سيكسرون الباب إذا لم يفتحه سريعاً كعادتهم عندما يفتشون المنازل.

وجد نفسه وجهاً لوجه معهم عند باب الصلاة، حيث كانوا قد دخلوا من الباب الخارجي دون تنبيه مسبق. فتح باب الصلاة بسرعة، وشعر بارتباك. كانوا جنوداً عراقيين وليسوا أمريكيين.

سأله الضابط هل لديكم سلاح؟

لا

هل هذا معقول؟

ولم لا.. نحن لا نملك سلاحاً، وبإمكانك التأكد من ذلك.

من في البيت؟

زوجتي وابنتي.

— دعهم يجلسون في الصلاة، لأننا سنفتش الغرف.

تحرّك إلى أمل في غرفة النوم، وجدها ترتعد من الخوف وهي تحتضن

ابنتها مريم، وطلب منهما الانتقال إلى الصلاة.

لم تجب بكلمة واحدة لكن عينيها ظلّتا معلّقتين بعينه وهي تبحث في

هذه اللحظة عن أمان مفقود. شعر الضابط بارتباكها وخوفها فحاول أن

يطمئنئها، ولكن أيّ اطمئنان في مثل هذه اللحظات التي وجدت فيها كلّ

هؤلاء الجنود ينظرون إلى زوجها بنظرات عدم الثقة.

فتش الجنود غرف البيت، ولم يجدوا شيئاً يبعثون عنه، فانسحبوا،

تاركين آثار أحذيتهم مطبوعة على سجاد البيت.

بقيت أمل صامتة، ولم تقل كلمة واحدة. حاول الزوج أن يخرجها من

صمتها وخوفها.

— التفتيش يشمل المحلّة كلّها.

لم تجب أمل. كانت نظراتها زائغة وخائفة وهي تحتضن ابنتها. فجأة

قطعت صمتها: أريد أن أنام.

ذهبت لغرفة النوم ومرت دقائق، صاحت:

— لا تتركوني وحدي في الغرفة.

— لا لن تتركك، اهدئي قليلاً، فلا شيء يستحقّ كلّ هذا الخوف.

— يدخلون بيتنا، ويعثرون كلّ شيء، ونظرات الشكّ تلاحقنا، وكلّ

هذا لا يستحقّ الخوف.

منذ لحظة التفتيش وعيون أمل زائغة، وبدلاً من أن يكون الوقت الذي لنا شرقياً أقر  
يمرُّ عاملاً في تهدئتها أصبحت تتجول في البيت بعينين مرتعبتين تبحتان عم يعرفا الفرح من  
ضحك مع نفا  
طمأنينة مفقودة.

ازدادت حالة أمل سوءاً، ولم تنفع المسكنات في تهدئتها.  
وفي صباح يوم غائم تناولت حبة فاليوم، ثم حبة أخرى ثم حقنة مسكنة صلبة خشبية، كما  
ولم ينفع كل ذلك في توفير ساعة نوم واحدة لها بعد ليلة هجرها فيبر من أمامهما،  
النوم. ألقى صديقه

وجد الزوج أن حالتها تتدهور باستمرار وخاف أن تخرج عن نطاقها لهذه المرأة الج  
السيطرة، اتصل بأحد أقاربه فأخذ له موعداً مع الطبيب الساعة الثالثة أجابته الأخر  
عصرًا. العجوزان، ضحك

الطبيب نبه على عدم التأخر لأنه لا يستطيع البقاء في العيادة لوقته في طرف  
يتجاوز الرابعة عصرًا، لأن الأوضاع لا تطمئن أحداً. ظل مختاراً بما

في العيادة كان زوجها ينظر إليها وهو يتذكر بعض مشاهد حياته معها. — ماذا تعني  
رأها وهي تركض حافية القدمين في ليلة استثنائية مقمرة في إحدى ضواحي — والله لا أ  
براغ، بعد أن أنميا سهرتهما في مطعم جميل دعاها إليه صديقه محمود الذي ضحكوا ثانية و  
يعيش هناك منذ سنوات. جلسا على طاولة ينيها ضوء شمعة وضعت في هو الآن يتذكر  
كأس زجاجي، راح نورها يداعب وردة حمراء وضعت وسط الطاولة يراها الآن خائف  
يومها أكلوا لحم الغزال، ومر على طاولتهما عازف كمان غجري، عزف

يكون الوقت الذيما لناً شرقياً أقرب للموسيقى الهندية. ضحكا ومرحا تلك الليلة كأههما مرتعتين تبحتان عم يعرفا الفرح من قبل.

ضحك مع نفسه وهو يتذكر يوم زارا حديقة عامة في يوم صيفي شمس من أيام رحلتها إلى براغ، مرًا بامرأتين عجوزين تجلسان على ي تم حقة مسكنة صطبة خشبية، كانتا تتبادلان الحديث مع بعضهما وعيونهما لا تغادران من ليلة هجرها فيهر من أمامهما، كانتا جميلتين رغم كل السنين التي مرت.

ألقى صديقه محمود التحية عليهما، ردًا عليه لكن واحدة قالت: حظ أن تخرج عن نطاقنا لهذه المرأة الجميلة مع هذا الرجل ذي البشرة الداكنة.

يب الساعه الثالث أجابتها الأخرى: إنه السحر الأسود. ضحك محمود وترجم ما قالته العجوزان، ضحكوا جميعاً واستمروا في نزهتهما التي انتهت عند صاحب

في العيادة لوقت شواء في طرف المتزه وقتها تناولوا لحمًا مشويًا مع الخردل.

ظل مختارًا بما قصده العجوز، سأل محمود:

شاهد حياته معها، — ماذا تعني بالسحر الأسود؟

في إحدى ضواحي — والله لا أدري، هذه سمه العجائز هنا يقضين يومهن بالفرجة والتقليد،

صديقه محمود الذي ضحكوا ثانية وغادروا المتزه ولم يعودوا ثانية فقد انتهت أيام رحلتها. وها

شمعة وضعت في هو الآن يتذكر الصورتين صورتهما بالأمس وهي زاهية بفرحها وعنقواها فيما

ت وسط الطاولة. يراها الآن خائفة تزداد حالتها سوءًا. ولم تنفع المسكنات في تهدئتها.

سان غجري، عزف

(6)

خرج عبد الله من غرفة الطبيب في مستشفى العلاج الطبيعي واتجه إلى  
صاله، بانتظار إكمال صورة الأشعة لمفصل الركبة الذي بدأ يؤلمه كثيراً.  
من: غريب أمر هذا الألم، ما إن تكون في عيادة الطبيب حتى يصبح أقل  
لذة ولكن ما إن تغادر حتى يعود إليك. نساء ورجال يمرون عبر الصالة  
ضهم على عربات يدفعها أقاربهم، وآخرون يتكثرون على الحائط، ونسوة  
املات في المستشفى يشغلن الممرّ ذهاباً وإياباً.

توقفت قربه امرأة عجوز نحيلة منتعلة حذاء ممزقاً ولها وجه أبيض مترهل  
عينان ذاويتان، لقت حول عنقها شالاً أسوداً، وتكئ على عصا.  
ارتمت إلى جواره، وأنفاسها تتلاحق بسرعة. سألت: أين الدكتور  
باس؟ وكان الصوت جافاً، أشار إلى غرفته، وكان مرضى آخرون  
تظرون دورهم للدخول إليه.

حاول أن يهون عليها الحزن المرسوم على وجهها، ويبدأ في إغرائها  
لحديث:

— ما حاجتك إلى الطبيب يبدو أن صحّتك جيّدة ووجهك تملؤه  
لحيوية.

نظرت إليه، ولكنّه لم يجرّك ساكناً، في حين أخذت تلتمع عيناها نتيجة  
عكاس النور الآتي من الخارج وقالت: هل تظنّني سعيدة بحياتي هذه، ليس

من السهل أن تقبع وحيداً دائماً. لقد عشت في ما مضى من العمر . وبقيت نظراتها معلقة في و  
على غير هذا الشكل الذي أنا فيه الآن.

— لا يوجد — هذا في النهار أمّا في الليل فإنسان وحيد في هذا الع قالت: لئن الله قلبك بالبد  
فلكلُّ أصدقاء ومعارف.

فتتحوّل الحياة إلى شلال من الحزن، والحنين الجامح إلى الذين فقدناه عليه القيام به، ولكن في  
في عمرنا نحتاج إلى قليل من الدفء وإلى يد حنون ولا نحتاج إلى الوحدة.

— أنت تتمتعين بالحكمم

— وهل تشكين من الوحدة؟

— أشكو من كلِّ شيء.

صممت برهة ومدت يديها تمسح وجهها.

— يبدو أن الأيام قست عليك.

— أنا.. تعودت على قسوة الحياة، وأيقنت الآن أن الحياة مس  
للموت وأن العالم أصبح مجنوناً.

— العالم ليس مجنوناً، ربّما نحن المجانين.

— المشكلة أن الحقد والطمع تفشيا في النفوس، فأصبح البعض لا يض  
الخير للآخرين.

أدارت وجهها عنه وسألت المرأة التي تجلس بجانبها عن موعد دورها وبغداد بالنسبة إليه .

الكيك و"شربت زبالة" التي تسكن على جنباته.

الدخول إلى الطيب، ثم عادت ونظرت إليه:

— دعني أتأمل وجهك.

مضى من العمر ، وبقيت نظراتها معلقة في وجهه كأنها تتفحص جميع ملامحه دون أن تنطق  
لمة واحدة، وعبد الله هادئ، فيما راحت مَحْيَلْتُهُ بعيداً عن المكان..  
وحيد في هذا المر قال: لِيُنِرَ اللهُ قلبك بالبهجة مدى الحياة وليجعل أَيامك ترفل بالعزّة.  
عني أَقلُّ لك شيئاً آخر: الإنسان يفعل أحياناً ما يريد هو، وأحياناً يقوم  
بح إلى الذين فقدناه عليه القيام به، ولكن في كلِّ الأحوال ينبغي أن تكون أنت، ولا شيء  
نحتاج إلى الوحدة.

— أنت تتمتعين بالحكمة.

— الحكمة والعدل والجدّ والاعتدال من سمات الإنسان الصالح.

انتبه عبد الله لكلام هذه السيدة العجوز، التي استحضرت في ذهنه امرأة  
شبهها التقى بها في أوّل رحلة له إلى الشام للدراسة هناك.

لأن أن الحياة مسر راحت مَحْيَلْتُهُ تستعيد صوراً من ماضي حياته.

كان قد غادر مدينته الجنوبية مع والده قادماً إلى بغداد بعد أن أرسلت

جامعة دمشق إشعاراً بقبوله فيها. كان حلم السفر بالنسبة إليه مُقلَقاً فهو

صباح البعض لا يظلم يغادر بيته إلا مرّة واحدة للسفر إلى بغداد لإنجاز بعض المعاملات الخاصة

استخراج أوراق شهادة الجنسية العراقية.

عن موعد دورها وبغداد بالنسبة إليه هي شارع الرشيد المسكون بمحلات بيع اللبن

والكيك و"شربت زبالة" وارتشاف القهوة من مقهى البرازيلية، والفنادق

التي تسكن على جنباته.

اعتاد والده أن يسكن عندما يأتي إلى بغداد في فندق ذي بناء قديم  
وعلى مقربة منه محلّ لبيع شربت الزبيب "شربت زبالة" الذي تطلّ منه  
زجاجية كبيرة مملوءة بالشربت إضافة إلى قطع الكيك المرصوفة بجانبها.  
عندما كانا يعودان ظهراً إلى الفندق كانا يمرّان على مطعم  
إلياس... وهو مطعم صاحب بزائنه الموظفين الذين قدموا من المحافظة  
تتعالى أصوات العمّال الذين يقدّمون الطعام: واحد فاصوليا يابسة  
التمن، بامية، تبسي باذنجان، ربع دجاجة مشوية على التمن، تندا  
أصوات المنادين منهم على المطبخ.  
وكان يسأل نفسه: كيف يستطيع الطباخون تمييز أصوات المنا  
وتهئية الطعام للزبائن؟  
كانت الليلة الأخيرة قبل سفره إلى الشام، قضاها صاحبياً يتطلع  
النجوم وهو يستلقي على سريره في سطح الفندق، ويتذكّر مدينته وإخوتها طويلاً في  
وأصدقاءه.  
فالليل في الفندق مكانه السطح، فلا أحد يستطيع البقاء في الغرف انحل البيت،  
مثل هذا الصيف الحار في بغداد.  
في اليوم التالي استقلا سيارة أجرة إلى ساحة الوثبة، مكان انطلا  
السيارات إلى سوريا حيث تتوزّع شركات النقل الخاص.  
سمع المنادي يقول: الشام..الشام.. راكبان باقيان للشام، هل أنلحمّص والبييم  
مسافران إلى الشام؟

أجاب والده: نعم وقطع تذكرتين لهما، سأل عبد الله حينها والده:  
نريد الذهاب إلى دمشق وهذا ينادي للشام.

— الشام هي دمشق يا ولدي.

بعد أن وصلا إلى هناك وأنجزا معاملة التسجيل في الكلية، عاد والده إلى  
بيته، وبقي عبد الله يبحث عن سكن طلابي دائم له، بدلاً من الفندق.

قادته أقداره إلى بيت عربي في منطقة الشعلان، تسكنه امرأة عجوز،  
صلته إلى الغرفة التي سيسكن فيها، تقع الغرفة في الطابق العلوي، ويمكن

وصول إليها عبر سلم يلتوي إلى باب ذي نقوش حديدية جميلة.

نام ليلته في تلك الغرفة متعباً، فقد كان قد قضى وقتاً في البحث عن  
سكن.

عند الفجر سمع صوت المؤذن ينساب إليه خاشعاً وقوراً، شعر أنه قضى  
ويتذكر مدينته وإخوتها طويلاً في النوم، عاد وأغمض عينيه، فلديه متسع من الوقت للنوم.

نام ثانية ثم أفاق على صوت انسكاب ماء، نظر من شرفة الغرفة إلى  
الغرفة في البيت، المرأة العجوز تجلس على مقعد وأمامها طاولة أمام البحرة

راقب انسكاب الماء على جوانبها وتداخل ألوان الورد المتفتح في أصصها.

مكان انطلا استمر عبد الله ساكناً يراقب ما يرى. نادته: تعال نفتح سوية.. أنا

نتظرك، جلسا معاً تناولوا كاسات الشاي واللبن بالزعتري والزيت والخبز

باقيان للشام، هل أنتلحمص والبيض المسلوق وتداخل حديثهما مع حديث فيروز:

أمس انتظرنا أمس انتهينا

فكان الوعد نسيانا

كان الوداع ابتسامات مبللة

بالدمع حيناً وبالتذكار أحيانا

حتى الهدايا وكانت كل ثروتنا

بين الوداع نسيانها هدايانا

يا رحلة في مدى النسيان موجعة

ما كان أغنى الهوى عنها وأغنانا

توقف عن الكلام، ولاحظت التماع الدموع في عينيه.

قالت: لا تظنني صمّاء بلا مشاعر، فأنت مثل ابني الذي أنجبته كانت

صليبي، لا تنس يوماً هدفك، فالعديد من الأشياء ستتغير في حياتك، ولا مؤثراً،

ليس كلها، لا تفرط فيما أتيت من أجله، فالحياة توحى لك بأنها دنيا واحدة نظراته

ولكن فجأة تجدها مثل ومضة ضوء، خاطفة وسريعة فلا تؤجل يومك

غده، فالزمن ملك يديك، متى ما كنت تملك فعلك ولكن ما إن تفقد بل هاتف

حتى يغدر بك.

\*\*\*

انتبه عبد الله ثانية، ما زالت المرأة العجوز مستمرة بالكلام ولكنه

يكن يصغي إليها، لكن كلمات الطمع والحقد التي ترددها راحت تستر

صوراً أخرى من ذاكرته:

— فعلاً ما الذي يغيّر البشر ليحوّله إلى وحش هائج؟  
تذكر قبل أيام عندما انفجرت سيارة مفخخة في أحد الأسواق تاركة  
جُثّاً مقطعة منتشرة في المكان وجرحى ينزفون ومحلات تطايرت بضاعتها  
على الأرصفة.

عندما كان البعض يتراخضون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الجرحى، كان  
آخرون يبحثون في هذه الفوضى عن بضاعة يسرقونها.

كان المكان ساحة للرعب والفوضى. شعر أنه يعيش كابوساً مخيفاً. أفاق  
حينها منه ليجد نفسه مُجهشاً بالبكاء. قطع السوق باتجاه زاوية الشارع فلم  
يستطع أن يفهم شيئاً، فقد تلاحقت الأمور بسرعة خلال هذه الدقائق.  
كانت هناك امرأة تقف في تلك الزاوية من الشارع وقد امتلأ وجهها بتعبير  
مؤثر، خوف مصحوب بالحسرة وعيناها تفتشان عن شيء ما. أربكته  
نظراتها، فأطرق بنظره عنها، فلم يكن يمتلك الطاقة والقوة للنظر إلى عينيها.

السوق يصطبغ بالناس والجلث ما زالت ملقاة على الطريق. فجأة رنّ  
هاتف نقال. بحثت المرأة في حقيبتها عن جهازها فوجدته صامتاً. كان جهاز  
حنة ملقاة يرنّ وينتظر جواباً.

\*\*\*

مسح وجهه بيديه ليزيل هذه الصورة المفجعة من أمام عينيه، وانتهى إلى  
أن المرأة العجوز ذات الوشاح الأسود ما زالت تتحدث:

فكان السوء نسياناً

ت مبللة

بالدمع حيناً وبالتذكار أحياناً

كلّ ثروتنا

بين السواد نسيناها هداياناً

بيان موجعة

ما كان أغنى الهوى عنها وأغناناً

ماع الدموع في عينيه.

ساعر، فأنت مثل ابني الذي أنجبت

من الأشياء ستتغير في حياتك، ول

جله، فالحياة توحى لك بأنها دنيا وا

حاطفة وسريعة فلا تؤجل يومك

ت تملك فعلك ولكن ما إن تفقد

\*\*\*

ة العجوز مستمرة بالكلام ولكنه

والحقد التي تردّها راحت تستر

— لديّ ولدان أحدهما استشهد في الحرب مع إيران، والثاني اشترك  
معركة المطار قبل 2003/4/7 ولآن لم يعد.

مَدَّت يديها إلى جيبها وأخرجت صورة صغيرة لشاب في العشرين من  
العيادة. وجد عبد الله مكاناً  
عمره.

— هذا هو.. آخر أبنائي.

لم ينطق عبد الله بكلمة واحدة، فهو يعرف ما دار في معركة المطار تتوسد أرض العيادة.

فمَنْ يملك إجابةً يقدّمها لهذه السيدة الوحيدة عن مصير آخر أبنائها؟

نظرت في عينيه، ثمّ أدارت رأسها إلى المرأة الأخرى التي تجلس بجانبها: — هل سيكون مصير أمّ

— هذه صورة ابني، منذ عامين وأنا أبحث عنه، ذهبت إلى معتقل المطار وعيون بلا بريق، واحتماء

وإلى أبي غريب فلم ينجدي أحد. سافرت إلى البصرة إلى معتقل بوكا، واورموش العيون.

أعثر عليه وإلى معتقل بادوش في الموصل، وأنا على هذه الحالة، لا أعرف

أين هو الآن، يا عيني عليه راح.

وأجهشت بالبكاء، والمرأة الأخرى تصبّرها، وكأنّ أثماراً من الدمع منه وجه قمري مكحل بالغم

تدفّقت من عينيها، لا بل من قلبها. لقد تحوّلت الحياة عندها إلى صورة

تبحث من خلالها عن ولدها المفقود في مدن يسودها الموت والاحتلال.

— لا.. هو يتحوّل بينك

بالروح بالدم نفديك.. واليوم

جلست في مكائها، لا أ

بعضهم دون تعليق.

(7)

كان الحزن يشكّل المسحة الغالبة على وجوه المرضى والمرافقين لهم في العيادة. وجد عبد الله مكاناً شاغراً شغلته أمل فيما ظلّ هو واقفاً يتنقّل بعينه إلى عيون بلا بريق وأجساد مرمية على مقاعد خشبية متهالكة أو في معركة المطار، تنوسد أرض العيادة.

استفزّه ما رأى، واستفاق على سؤال:

هل سيكون مصير أمل مثل هؤلاء الناس، جسد متهالك بلا روح إلى معتقل المطار وعيون بلا بريق، واحتماء بالحيين من خوف مزروع بين شغاف القلب ومعتقل بوكا، ولم ورموش العيون.

وقفت امرأة في لحظة الجواب، في الأربعين من عمرها، شعر معصوب وشال يلتف حول الرقبة وغطاء للجسد، غصن من البان أسود اللون يبرز منه وجه قمري مكحل بالغيوم، وعيون زائغة ويدان بأنامل طويلة كأنّها عازفة موسيقى أفاقت لتوّها من معبد الكاهن القديم.

قالت: أين هو الآن؟ في السجن؟

لا.. هو يتحوّل بينكم، يسخر منكم، كنتم تصفّقون له وتصرخون: بالروح بالدم نفديك.. واليوم تنتظرون موته.. مساكين.

جلست في مكانها، لا أحد همّه ما تقول، فيما ابتسم مرافقو المرضى مع بعضهم دون تعليق.

وقفت ثانية: كلُّهم يخدعونكم، ما دمتم تصفِّقون لمن يملك الموت — فرصة بين موت والفلوس، أنتم تأكلون الفتات وهم يسرقون كلَّ شيء.. كلَّ شيء.

أنا التي ترى ولا ترى، تسمع ولا تسمع، تموت مع الموت وتبقى: بكّة منه، سأل زوج أمّكم بكم صامتون خائفون؟ سأتيكم في نهار جديد.. ولكن البسوا أكفانكم — ما به؟  
أولاً، واذهبوا للموت.. لا تخافوا ستعودون.

جلست ثانية والتزمت الصمت وكأَنَّها لم تقل شيئاً وبقيت عيناه أطراف بغداد واعتقل مسمرتين على شاب في العشرينيات من عمره، يمدد جسده على أرض إلينا كما تراه، يأخذ العيادة، ويضع يديه تحت رأسه، لا يرى ما حوله وعيناه معلقتان بعين شيء عنده غير الصبر مرافقته.

سألت أمل: هل يمكن للخوف أن يدمر حيوية الإنسان هكذا، ويفقد — ما زالوا في المجهول صر أرواح أهاليهم الـ قدرته على التواصل والحياة.  
وبحسّ مرهف قالت مرافقة الشاب: القهر والقوّة العاشمة يدمران الروح. وقف صامتاً وهو يهلكان الجسد.

— ما الذي فعل به كلُّ هذا؟  
— الغزاة.. الذين يدمرون كلَّ شيء، الروح والحياة والذاكرة وكسَلت أشجار الشارع نائب العيادة ناعقة شيء.

أتعرف من هي هذه المرأة التي كانت تتحدّث وسطنا؟ إنها أستاذتي وانتظار الدخول إلى عاودته ذكريات  
الكلية، قتل زوجها وولداها الاثنان قال وضعها إلى ما هي عليه الآن.  
قال: الآن، ماذا يعني الآن؟

فقون لمن يملك الموت — فرصة بين موت وموت أم مدن وبشر بلا ذاكرة أم ماذا؟  
كل شيء. في صلاة عيادة الطبيب، شاب آخر مطأطئ الرأس، يمرُّ الوقت ولا  
مع الموت وتبقى: بركة منه، سأل زوج أمل مرافقه:  
ولكن البسوا أكفانك — ما به؟

— كان يعمل في مزرعة العائلة، إلى أن داهمت قوات الاحتلال منطقتنا  
شيئاً وبقيت عيناه أطراف بغداد واعتقلت الشباب، وكان واحداً منهم، وبعد سنة ونصف  
بدد جسده على أرضنا إينا كما تراه، يأخذ جسده ويجره إلى زاوية في البيت، يحتمي بحيطاتها،  
وعيناه معلقتان بعيداً شيء عنده غير الصمت.  
— والآخرون ما حلَّ بهم؟

لإنسان هكذا، ويفقد — ما زالوا في المجهول. حتى الأطفال خصصت لهم معتقلات، والحسرة  
مصر أرواح أهاليهم الباحثين عن لحظة لقائهم.  
الغاشمة يدمران الروح وقف صامتاً وهو ينظر إلى عيني هذا المرافق اللتين أخذتا تلتمعان نتيجة  
نعكاس النور الآتي إليهما من الخارج.

اتجه صوب النافذة المطلّة على الشارع، كانت لوحات إعلانات المتاجر  
الحياة والذاكرة وكلُّ تسلّق أشجار الشارع. كلُّ شيء يسوده صمت مع الخوف، السيارات تمرُّ  
بجانب العيادة ناعقة بينما أخذت أضواؤها تنير المكان، جلس هكذا مدّة  
سطيناً؟ إنها أستاذتي بانتظار الدخول إلى الطبيب، أمور عدّة بدأت تشغله.

هي عليه الآن. عاودته ذكريات أيام الحرب وأهوالها وتساءل ماذا حلَّ بنا؟ لقد  
تصدّعت أحلامنا ونهارت أشياء كثيرة، إنك الآن مشغول بالحنين الجارف،

والرغبة في الخروج من هذا الدهول والاحتياج إلى الدفء وإلى الأصدقاء  
الذين لم يخدعوك أبداً.

سألته أمل: ما بك؟ تبدو وكأنك وحيد رغم وجودي بجانبك؟  
بنة موحشة.

— كنت أتساءل ما الذي حلَّ بنا، وكنت أتمنى دفء الوجود  
والأصدقاء.

— الأصدقاء والمعارف موجودون.. ولكنهم موجودون في النهار فقط  
شديد.

أمّا في الليل الذي يحيم علينا قبل مواعده فتتحوّل الحياة إلى شلال من الحزن  
والدهول، حتى الأحلام تغادرنا في الليل، فتلم روحك إلى أهلك وتبحر  
معهم عن أمان يهرب منك.

سأل الشاب:  
عاود النظر إلى غرفة الطبيب، لم يكن الباب مغلقاً بإحكام، لذلك  
يتسرب منه الضوء ويسمع من خلفه صوت نفس خافت لشخصوارع، ونحن  
مضطرب، وعيون مرافقي المرضى يشعُّ منها بريق الفضول، وهي تحدّق  
باب غرفة الطبيب.

— السيارات  
هذه المرّة تبدو أمل هادئة، بعد أن تكرّرت زيارتها للطبيب، وما علاقة  
واضحاً استعدادها التام لهذه الزيارة.

في الجانب الأيسر من مقعده، جلس شاب بدت عليه علامات الجنون،  
يعد نظره يفارق فتاة تجلس أمامه، وأخذ يغازلها بأبيات من الشعر، الواحد  
تلو الآخر، وهي صامته بعينين زائغتين، كأنها في عالم آخر.

— ولكنك

دفعه وإلى الأصد  
اختلس النظر إلى شباك الصالة، الشوارع بدت أكثر ظلمة مع انقطاع  
ار الكهربائي، وبدت الملامح الأولى لليل طافحة بالترقب والحذر وبقوى  
ية موحشة. بي بجانبك؟

دفعه الوجود  
وبسرعة أعاد نظره إلى الوجوه الموجودة في العيادة، أثار انتباهه شاب  
و في العشرين من عمره يجلس قبالتها ويحتضن قطعة كارتون مقوى  
دون في النهار فقط ص شديد.

إلى شلال من الحرا  
سأل أمل: ماذا يفعل بهذه الكارتونة؟  
إلى أهلك وتبحر — لا أدري.. اتركه وشأنه فهو مريض.

سأل الشاب: الطيب تأخر عن مواعده.  
تأياً بإحكام، لذلك — اتصل، وهو عالق في الطريق، فالأمريكان يوقفون السير، ويقطعون  
خافت لشخص شوارع، ونحن عالقون هنا أيضاً. لا تتعب نفسك بالتفكير فيه.

ل، وهي تحدق في — هل أنت مريض؟  
السيارات المفخخة دمّرتني، ومرّ شهران وأنا أراجع الطبيب.  
لها للطبيب، وبد — وما علاقة السيارات المفخخة بالطيب؟

أدار الشاب وجهه عنه لحظة، ثم عاود الحديث:  
علائم الجنون، — إن أزعج الأمور هي الانتظار، وعدم القدرة على عمل شيء إزاءها،  
من الشعر، الواحناً هذه الحالة تؤدي إلى تحطيم النفس.. انظر إلى هؤلاء الأصحاء ينظرون

لي المرضى بأسى لأنهم لا يستطيعون مساعدتهم.  
— ولكنك لم تجيني على سؤال؟

— إننا نلعب لعبة الحمقى، هي تجاهل الموت.. ماذا بقي لنا جميعاً  
هذه الحماقات، ماذا عسانا نفعل غير ذلك، الشوارع تمتلئ بالمحتلين،  
مزروعة بالموت، متى سيرحلون حتى ننتهي من هذه السيارات المفخخة؟  
— أعرف كل ذلك، ولكن، ما علاقة الطبيب بالسيارات المفخخة؟  
— عندما تمشي في الشارع هل يمكنك التعرف على السيارة المفخخة  
— لا.

— ما دمنا لا نستطيع التعرف عليها، اكتشفت أنا طريقة للتعرف  
منها.

— كيف؟

— هل ترى هذه الكارتونة؟

— نعم أراها!

— الكارتونة هي الخلاص.. كلما مرّت سيارة من أمامي إليه.

الكارتونة أمام جسمي لكي تحميني من المفخّحات، وإذا صعّدتُ  
أجرة، أسرع بالتزول عندما أرى راكباً بيده كيس أو أي شيء آخر،  
قد يكون حاملاً قنبلة أو عبوة ناسفة.

— خليها على الله ولا تخاف.

شعر بالانزعاج إزاء اتهامه بالخوف وقال:

— أنا لا أخاف من المواجهات ولا من الرمي ولا من الهاونات

أستطيع أن أتعامل معها، لكنّ السيارات لا علاج لها.

مرة، انفجرت سيارة مفخخة في دورية أمريكية، فسقط جرائها ابن  
جيراننا، فجأة تحولت أمه الجميلة التي كان العطر يفوح من جسدها إلى  
امرأة هرمة، وكأن الزمن قد صفعها بقوة وبدا وجهها هشاً، بدت شخصاً  
آخر، شخصاً متعباً هرمًا.. شاهدنا بقع الدم التي تملأ المكان الذي شهد  
الانفجار.. طوّقت قوات الاحتلال، لكننا زحفنا ببطء شديد بمحاذاة  
الرصيف، وأخذنا نرقب الطريق.

وجدنا بقايا جثّة مغطّاة، وكأنّه لم يعد واحداً منّا رفعت الغطاء عن  
وجهه، أخرجت منديلي ومسحت الدم عن وجهه، ثم أعدت غطاءه. كان  
يوم دفنه يوماً صعباً، لم يرافقه إلا قلة من الأصدقاء، انتظرنا على باب المقبرة  
مدّة طويلة، ريثما تنتهي مواكب دفن الآخرين الذين سبقونا.  
دخول الطبيب إلى العيادة جعل الصمت يحلّ ثانية، بعد دخول الشاب

إليه.  
بعدها أمّمتُ أمل مراجعتها للطبيب ونزلت من العيادة إلى الشارع، كان  
الشاب ما يزال واقفاً وهو يرفع الكارتونة أمام جسمه. توقّفت حافلة  
للركاب، وصعد إليها وهو يحمل كارتونته وكيساً صغيراً لأدوية اشتراها  
من صيدلية تقع أسفل العيادة. سائق الحافلة تفحصه بدقة، فقد أثارت  
فضوله الكارتونة والكيس الذي يحملهما الشاب.

صعد راكب آخر إلى الحافلة وهو يحمل كيساً معه. وفجأة ترك الشاب ذو  
الكارتونة الحافلة ونزل بسرعة وهرولاً بعيداً. صاح السائق بالركاب: مفخّخة.

وركض باتجاه الصيدلية التي تقف أمل وزوجها عندها لتشتري الأدوية  
التي وصفها الطبيب، فيما ترك الركاب الآخرون الحافلة وركضوا في  
اتجاه.

ضحكت أمل، فاستشاط السائق غضباً.

— أتسخرين متاً.. لقد ترك كيساً في السيارة وهرب.

— إنه مريض ويخاف من السيارات المفخخة، ومن الركاب الذين  
يحملون أكياساً معهم.. لقد خاف وهرب.

عاد السائق إلى السيارة وهو يلعن الزمان الأغر الذي حلّ بالعباد ورد  
نستاهل. قالت أمل لزوجها: ولماذا نستاهل؟

— أسألي صاحب الكارتونة قد يكون عنده الجواب.

نظر عبد الله إلى  
الروحشة، فهي الآن  
لصباح الباكر.  
كان يحلو له أن  
الألوان، يتأمل كيف  
لكنها كانت كرت  
من هذه اللحظة، إطي  
اللون والضوء. وكأن  
أن يلتمس فيه أجنحة  
الذي حلّ.

نادته أمل: ماذا  
— سمعت ولكي  
مع ضوء شمس الصبي  
— هذا صباح  
حذرك وابتعد عن  
— الموت.. الموت  
السوداوين إلى آخر

(8)

نظر عبد الله إلى النافذة المطلّة على الشارع، أحسّ أنّها لم تعد توحى له بالوحشة، فهي الآن تعبر به إلى زهور يراها تنهض مع الضوء في هذا الصباح الباكر.

كان يحلو له أن يقف عند هذه اللحظة، ليكون مغموراً بالضوء والألوان، يتأمل كيف تنهض الحياة لتمد يديها بالحبّ.

لكنّها كانت كرفّة عين، شعر بعدها أن زمناً آخر يتقدّم نحوه ليخطفه من هذه اللحظة، إطلاقات نارية دوّت من اتجاهات عدّة، أبعدته عن سحر اللون والضوء. وكأنّ الزهور أرادت أن توهمه أنّ سحر الصباح الذي أراد أن يلتمس فيه أجنحة الشمس كان مجرد وهم أو توق للإحساس بالربيع الذي حلّ.

نادته أمل: ماذا تفعل في الحديقة؟ ألا تسمع إطلاق النار؟

— سمعت ولكنني أوهمت نفسي بالدهشة وأنا أرى مزيج ألوان الزهور مع ضوء شمس الصباح، فنسيت محاذير الخروج إلى الضوء.

— هذا صباح مثل كلّ صباح، يتدبّر بإطلاق النار والقتل. فخذ حذرك وابتعد عن الموت. فقد تأتيك إطلاقة طائشة.

— الموت.. الموت، يتقدم إلينا، أحياناً يسلم علينا ويمشي، أو يمدّ يديه السوداوين إلى آخر، كان قبل ثوان مفعماً بالحياة والحلم.

— أرجوك، اترك الأحلام الآن، وهبي نفسك للذهاب إلى المصرف أحسن عبد الله أن  
لسحب مبلغ لنا، لتغطية نفقات بقية أيام الشهر.

صمت عبد الله، ثم راح يحدث نفسه، بأن زوجته تتصور الذهاب — كم مرّ عليها  
المصرف مجرد تغيير جوّ، الخروج من سجن البيت المزعج، لكنّها لا تلوي جذعها، و  
كم سيعاني حتى يسحب هذا المبلغ من البنك. فدخل المصرف بحسنة تنشر رائحة ط  
مشكلة، إضافة إلى الزحام، ونرفزة بعض الموظفين.

لكنّه عاد وأقع نفسه، أن لا مفرّ من الذهاب إلى هناك، ولديده لبسه. لم يشعر أن  
فسحة من الوقت لشرب فنجان من القهوة.

سأل نفسه: لم أحمل الأمور أكثر من طاقتها؟ لا بدّ من النظر إلى هزّ رأسه، دون  
يحدث بهدوء. تأمّل في الحياة، وانظر كيف تكشف لك الأحداث بالح.

لترى ما كانوا يخفون حتى عن أنفسهم، ورغم ذلك فإنّك تحتاج إلى غادر عبد الله  
الذي تثق به، والآخر الذي تضعفه الظروف القاسية، فكثير منهم بعضهم يكتمون بتهم  
جوانبهم عن خلق ونبل، ولكن لكلّ منا قدرته على التحمّل، فكفى أن وصل المصرف  
وانزعاجاً. كثيرون هم

كم مكاناً تركت فيه قطعة من عمرك، وكم مرّة حزمت أمتك  
وغيّرت مكانك، وكانت الدهشة تلازمك في كلّ مكان حللت به.

إنّ بعض ما حصل هو مجرد قلب خفق بالحبّ طوال رحلة باتت تقف  
من نهاياتها، ولم يعد لك الآن إلا أهلك، فهم خطّ دفاعك الأخير، بعد  
افهّارت خطوط دفاعاتك الأولى. توجيه النقد لطر

سك للذهاب إلى المصرف أحسن عبد الله أن حزناً مفاجئاً بدأ يحاصر قلبه، لكن مشاهدة النخلة  
روعة على الطريق، أعادت إليه روحه:

زوجته تتصورُ الزهور — كم مرَّ عليها من أيام قاسية، الحرارة أو البرودة، وكم عاصفة أرادت  
بیت المزعج، لكنّها لا تلوي جذعها، وكم رصاصة طائشة توسّدت بين أضلاعها، لكنّها بقيت  
فدخول المصرف بمسقة تنشر رائحة طلعتها، وتمشّط شعرها مع كلّ ضوء صباح.  
أكمل شرب فنجان قهوته، وغير ملابسه، ووقف أمام مرآة خزّانة  
باب إلى هناك، ولديه لابسه. لم يشعر أن ألوان ملابسه متناسقة وتساءل:

— لِمَ لَمْ يعد يهتمُّ بأناقته، فلديه كلّ مساحة الوقت ليفعل ذلك؟  
لا بدّ من النظر إلى هز رأسه، دون أن يجد تفسيراً، فقد أحسَّ أن أيّ جواب لن يكون في  
شف لك الأحداث إصلاحه.

غادر عبد الله البيت متوجّهاً إلى المصرف. مفارز التفتيش في الطريق،  
ذلك فإنك تحتاج إلى بعضهم يكفني بتحية منه، ومفارز أخرى تطلب منه التوقّف للتفتيش. إلى  
ناسية، فكثير منهم لي التحمّل، فكفي أن وصل المصرف.

كثيرون هم الواقفون بانتظار أن يفتح المصرف أبوابه، فالساعة لم تشر  
بعد إلى الثامنة والنصف صباحاً.  
كم مرّة حزمت أمّة قسم من المنتظرين كانوا موظّفين متقاعدين ينتظرون تسلّم رواتبهم،  
وآخرون مراجعون مثله.

وجد نفسه يقف مع مجموعة، أغلبهم من المتقاعدين، الذين لا يتوقفون عن  
طوال رحلة باتت تقتر دفاعك الأخير، بعد توجيه النقد لطريقة التعامل معهم، بعد سنين العمر التي قضوها في الوظيفة.

لاحظ أن أحدهم مشغول بإجراء المكالمات الهاتفية من هاتفه الـ — يبدو أنك جئت  
التفت إلى عبد الله:

— الأمريكان عطلوا شبكة الاتصالات في منطقتنا منذ أسبوع، ليارة أجرة للوصول إلى  
تراني أستغل الفرصة هنا للحديث والاطمئنان على الأقارب.

— ولماذا ساعتين؟  
— أصحاب سياراتنا  
أجابه آخر:

— الحياة كلها معطلة.  
تبرونها منطقة ساخنة

كان عبد الله يتأمل الموقف.. مصرف محاط بمصدات كونكر — إذا كنت من  
وأسلاك شائكة، ومراجعون يسجلون أسماءهم على ورقة عند أحدهم هناك؟

يضمنوا أسبقية الدخول إلى المصرف حسب أسبقية الحضور، وهي ط — أنا أسكن في  
ليست ناجحة دائماً. لسبح على الهوية. لذلك

من بعيد لاحظ عبد الله رجلاً تجاوز عمره السبعين عاماً يعبر الشارع — ألا يوجد لدينا  
باتجاه البنك ويحمل معه كيساً ويبدو متعباً.

توقف الرجل عند مكان وقوف عبد الله:  
— توفيت زوجته.

— السلام عليكم.

— وعليكم السلام.

— متى يفتح المصرف؟

— عادة، الساعة الثامنة والنصف، وربما أكثر قليلاً.

لاحظ عبد الله أن الكيس الذي يحمله الرجل يضم ملابس وأدوية، رفضت، وها أنا أع  
حلاقة وحاجات خاصة أخرى. — ستعود إلى

- الكلمات الهاتفية من هاتفه الـ
- يبدو أنك جئت من مكان بعيد؟
- أنا قادم من خارج بغداد. وبقيت ساعتين أحاول الحصول على
- ت في منطقتنا منذ أسبوع، ليارة أجرة للوصول إلى المصرف لتسلم راتي التقاعدي.
- ولماذا ساعتين؟
- أصحاب سيارات الأجرة يرفضون الحضور إلى منطقة المصرف لأنهم
- مترونها منطقة ساخنة وخطرة.
- ف محاط بمصدات كونكريت — إذا كنت من محافظة أخرى، فلماذا تتسلم راتبك من بغداد وليس
- هم على ورقة عند أحدهم لن هناك؟
- ب أسبقية الحضور، وهي ط — أنا أسكن في بغداد، ولكنني هجرت من منطقة سكنائي، فالقتل
- صبح على الهوية. لذلك ذهبت إلى محافظة أخرى عند بيت ابن أخ لي.
- مره السبعين عاماً يعبر الشا — ألا يوجد لديك عائلة في بغداد تلجأ إليها؟
- توفيت زوجتي، وليس لي أولاد، وبقيت في البيت وحدي إلى أن
- هجرت.
- وهل وجدت سكناً آمناً خارج بغداد؟
- رفضت زوجة ابن أخي بقائي عندهم بعد مرور الأسبوع الأول،
- فهي تقول إنهم مهمومون بالدنيا، وأنا أضفت لهمومهم همًا. طلبت منها أن
- أبقى عندهم على أن أقضي النهار بالشوارع، فقط أنام عندهم ليلاً، لكنّها
- الرجل يضمُّ ملابس وأدواتي، وها أنا أعود لبغداد.
- ستعود إلى بيتك؟

— لا أدري، أخاف أن أقتل.

شعر عبد الله  
دفاعاته، وبقي وحي

توقف عن الكلام، وضاعت نظراته في زحمة أفكار مجهولة وخوف  
ينتظره. قال:

— هل هناك ملجأ لرعاية المسنين؟

أجاب أحد الواقفين:

— أنت تبحث عن حياة في شوارع يتسابق فيها الموت. اذهب  
بيتك، ربما تنجو، أمّا في الشارع فربما تجد ملامح حياة، نهاراً، ولكنك  
الليل مَيِّتٌ في كثير من الاحتمالات.

صدم الرجل مما سمع، وبقيت نظراته مسمّرةً على الأرض، لحظة يرا  
إلى باب المصرف، ثم يعيدها إلى الأرض، فهو يعيش الموت انتظاراً. قال:  
— أنا هجرت مرتين: مرّةً على الهوية ومرّةً أخرى من أهلي، أنا  
كانت الدنيا مسرحاً لفرحي ومتعتي. أبحث الآن عن فراش آمن أوي  
بعد أن كان القمر يملأ فراشي وامرأة إلى جانبي تمدُّ إليّ الحبّ.

ثم توقّف عن الكلام عندما دوتْ إطلاقات نارية من عربة همر أمر،  
تحاول اجتياز الشارع وقد أعاقها من بعيد سائق سيارة أجرة، فأردوه ف  
عندها بكى الرجل العجوز وصاح:

— عجيب أمرنا.. نتحمل الاحتلال، ونتركهم يضعون الأكياس السود  
رؤوسنا ونحن مشغولون بمقاتلة بعضنا.. متى نعود جسداً واحداً يغتسل بالحد

شعر عبد الله يحزن شديد على هذا الرجل العجوز الذي خسّر كل  
دفاعاته، وبقي وحيداً ينتظر حلمه الجميل: فراش آمن يسبح عنده القمر.

كار مجهولة وخوف

أذهب الموت. اذهب

حياة، نهاراً، ولكنك

الأرض، لحظة يرد

الموت انتظارك. قال:

رى من أهلي، أنا لا

من فراش آمن آوي

لي الحب.

من عربة همر أمراً

أجرة أجرة، فأردوه قبة

ضعون الأكياس السود

لداً واحداً يغتسل بالحج

(9)

في تلك الليلة، ظلّت صورة الرجل العجوز تلازمه، وتذكّره بتلك المرأة  
عجوز الباحثة عن ولدها المفقود.  
وقف خلف باب البيت ينظر إلى خارجه. سكون لا حركة فيه. فجأة،  
مع أصواتاً خافتة بدأت تعلو وتعلو.  
بعدها جاء صوت من مكبر صوت من جامع الحيّ يعلن أنّ على  
لمهجرّين القادمين أن يتحرّكوا باتجاه الجامع، وطلب من الأهالي أن يزودوا  
الجامع بما يتوفّر لديهم من الأغذية والفرش.  
لدقيقة، ساد صمت في البيت، لكنّ الصمت لم يدم طويلاً، فانطلق  
بجمل أغذية إلى حيث كان الناس يتجمّعون.  
أفزع المنظر، عشرات العوائل وصبية صغار يبحثون عن دفء مفقود.  
سأل رجلاً يقف إلى جواره:

— ماذا جرى؟

— هجرّونا من بيوتنا، وطرّدونا منها بقوة السلاح، وقتلوا اثنين من  
الشباب، لا لذنوب ارتكبوها بل لأنهما أرادا أن يفهما لماذا يتمّ تهجيرهم من  
بيوتهم في مثل هذا الوقت والبرد الشديد.  
بقيت نظراته مشدودة إلى ما يدور حوله. أحسّ بحسرة أنفاس في  
جواره. استدار، كانت المرأة العجوز ذات الشال الأسود التي التقاها في

المستشفى تحمق فيه، وكأنها تريد أن يعلمها شيئاً للحظة لمعت  
وكانها استفاقت من حلم طويل، قالت وهي ترفع صورة ابنها:  
— ألم تقابله بعد؟

سأله جارته عن

شعر وكأن الأرض انزلت من تحت أقدامه، لكن امرأة أخرى بتسامه خبيثة، محاولة  
سكان الحي. نظر إليها،  
المهجرين قالت:

— منذ سنوات وهي تبحث عنه. لم تترك معتقلاً إلا وذهبت إليه، فكاره وكلماته وتبتعد  
أن تلقى جواباً لسؤالها عنه. هي الآن لا تريد شيئاً، بل تريد أن تراه فقط تأخذه إلى رحلة مجنوناً  
تجد جثمانه حتى ترتاح وتريح روحه.

— هي ما زالت تتمسك بالأمل، وعندما تفقده فلن تجد لحياها معنى سيارتك فتجنّب الشد  
لم يُسنه كلماته حتى استدارت العجوز واختفت بين جموع المارة، ولا يسمحون لها  
والأطفال.  
— ماذا حصل؟

مع نهايات الليل، واقتراب الصباح، ازداد البرد قسوة، سمع من  
صوت امرأة تولول:

— لقد رحلت العجوز، وبقيت عيناها مفتوحتين على اقتراب الصباح  
أمّ تاه عنها ابنها، وهي ما زالت تبحث عنه، وعيناها تلملمان من الشو  
والبيوت والمعتقات شكل ولدها، وعندما فقدت أملها رحلت روحها  
فضاء واسع تبحث عن روحه هناك فلم يعد لها متسع من مكان.

تكون مودياً يرسمه ليد  
بين أصابعه وفرشاة رس  
هي تعرف أنه يه  
التوهج في مثل هذه الل  
حاولت ثانية أن ت  
انفجرت سيارة في نقط

سألته جارته عن أحواله هذا الصباح، وكانت ترسم على شفيتها  
 أمه، لكن امرأة أخرى بتسامه حيثة، محاولة دفعه للحديث عما سمعه الليلة الفاتية من أخبار يتناقلها  
 سكان الحي. نظر إليها، عينان مضيئتان بزرقة صافية، هذه العيون تسرق منه  
 معتقلاً إلا وذهبت إليه، أفكاره وكلماته وتبتعد بها ساحة بين أمواج بحرها الملتحفة برموش عينيها،  
 بل تريد أن تراه فقط وتأخذه إلى رحلة مجنونة وعوالم اللون، المولود من أعماق الظلمة.  
 لاحظت هيامه وعينه السارحتين، فبادرته ثانية: إذا أردت الخروج  
 نده فلن تجد لحياتها معنى بسيارتك فتحسب الشارع العام، لأن الجنود أغلقوه وهم غاضبون على  
 اختفت بين جموع المارة، ولا يسمحون لهم بالتقرب منهم.

— ماذا حصل؟

وبقيت نظراته تبتعد عنها، هي رشيقة الجسد، شعرها الأسود يلزم  
 كتفها وبعضه تعثره أصابعها، تمني لو كان رسماً قادراً على إقناعها بأن  
 تكون مودياً يرسمه ليحعل هذه الفتنة الساحرة في عينيها وجسدها تتوهج  
 بين أصابعه وفرشاة رسمه.  
 هي تعرف أنه يهيم بها وتعرف كيف تلاعبه لكنه تضيع منه فرص  
 التوهج في مثل هذه اللحظة العابرة.

حاولت ثانية أن تعيده إلى لحظة المكان والجغرافية قالت: ألا تعلم؟ أمس  
 انفجرت سيارة في نقطة التفتيش، فثار غضب الجنود ضد سكان المنطقة،

وبسخرية لا تخلو من غنج، مع حركة جسدها قالت:

— هل هذه المرة الأولى

— اعتمد خريطة الطرق البديلة.. هذا هو حالنا، عندما تُغلق بوج

نعم المرة الأولى.. وما كان انطباعتك؟

طرفنا المعتادة نبحت عن مخارج ومداخل بديلة.

— وما كان انطباعتك؟

بعدها غادرته فيما ظلَّت عيناه تلاحقان عدوية تمايل جسدها وتر

قرأت كثيراً عن ب

شعر رأسها على كتفيها.

للف ليلة وليلة ثم اكتشف

شعر أن روحه مخنوقة بعد أن ضاعت ومضة توّهجه معها بالعلوم والمعرفة، ألم تكن

والزمن الذي هو فيه، فهو يضيع الفرصة وكأنه يؤجّلها إلى زمن ل

والزمن لا يقتصِر نفسه بالمكان والزمان نفسه، فهو يلعب معك، إن — ما زال الصراع عل

وتقتنصه تبتعد عنك الفرص إلى زمن آخر قد لا يأتي أو يأتي استثناءً.

مرة التقى امرأة فرنسية، في مكان غير بلده كانت طبيعة عمله تتغيرات جديدة تكشف

القوانين وتسمع فيه أ

اللقاء مع أمثالها، فهي تعمل مصورة تلفزيونية.

خر قوى أخرى لا تريد

كانت برفقة رجل قد تجاوزها بسنوات العمر ويعمل مُن انتصار ونكوص وقيا

وراً بجموراي وآخرين

تلفزيونياً، جمعهما العمل وأبعدتهما سنوات العمر.

لم تتكلم معه مباشرة عند لقائهما الأول، لكن عيونها كانت تتفتح كفتون ويضيع وهج أ

لاكتشاف كينونته، هي فارعة الطول، شعر أصفر قصير، وترتدي بنطلوناً أس

ما كان.

وقميصاً بلون أرجواني، ينعكس لونه على وجهها ليصبح الوجه بلون الشمس

سلسلة طويلة لن تنت

انتبه إلى أنها تطيل النظر إليه، وألقى نظرة على جواز سفرها:

أجابها: هو التاريخ

— أنت ماري لوفان؟

حدهم هم الذين يظهر

— أنا ماري.

بيناً آخر لم توجه إليها

جسدها قالت:

— هل هذه المرّة الأولى التي تريدان زيارة بغداد؟

هذا هو حالنا، عندما تُغلق بوح — نعم المرّة الأولى.. والمرّة الأولى التي ألتقي برجل من بغداد..

— وما كان انطباعتك؟

حقان عدوية تمايل جسدها وترأ — قرأت كثيراً عن بغداد، في الصغر كانت بالنسبة لي مدينة الأحلام

ألف ليلة وليلة ثم اكتشفت أنها كانت بوابة الدخول إلى فضاء التاريخ

لأعت ومضة توهجه معها بالمعلوم والمعرفة، ألم تكن سومر بداية حضارة الدنيا؟

— وكأنه يؤجلها إلى زمن لا — وبعد البداية؟

نفسه، فهو يلعب معك، إن — ما زال الصراع على أشده في بابل بين قوى تنهض بعالم جديد تُسنُّ

القوانين وتسمع فيه أصوات الموسيقى والمنشدين في المعابد وتأخذ الحياة

بلده كانت طبيعة عمله تتيح بيّات جديدة تكتشف فيها العلوم والحقوق وفرص الحياة. وفي الجانب

أخر قوى أخرى لا تريد لهذه القوة الفاعلة أن تكون، فيحصل الصدام.

سنوات العمر ويعمل مُت انتصار ونكوص وقيادات تتبع بعضها، من كلكامش الباحث عن الخلود

روراً بحمورابي وآخرين يترك بعضهم اسمه لامعاً مع الخالدين، وآخرون

لكن عيونها كانت تتفتح كفتون ويضيع وهج أسمائهم مع انكسارهم وفقدان القدرة على الحفاظ

سفر قصير، وترتدي بنظولنا أسلمى ما كان.

سلسلة طويلة لن تنتهي عند لحظتنا الراهنة.

أحاجها: هو التاريخ نبحت فيه عن الحقيقة بصعوبة لأنّ المنتصرين

جدهم هم الذين يظهرون في الصورة بألوان براقّة، بينما الحقيقة قد تكون

شيئاً آخر لم توجه إليها عدسات المصوّرين، وربما عن قصد وتعمد.

دارت لحظات صمت، فيما راح يوزّع نظراته بينهما، هذا الرجل العر  
الذي رأى، ولم ير، سافر إلى بلدان كثيرة، فجواز سفره مليء بالأشياء  
كلها أماكن اشتباك وصدام وانقلابات وثورات وهي الباحثة عن التاريخ.  
ظلّ معها يتبادلان النظر، قال لنفسه: إن لغة العيون أجمل من  
الكلام، ولكن ألم يكن إحساسه بصوتها وكلماتها أجمل.. أمواج هادئة  
موسيقى تنساب من شفثيها المكتنرتين.

لحظات وعادات إلى الحديث معه:

— يبدو أنك تهتمُّ بالأشياء الصغيرة الجميلة، هذا ما يوحي به مكتبك  
— لا يمكنك تفهّم أمور الحياة الكبيرة دون الاهتمام بالأشياء الصغيرة  
الجميلة، فباقة من الورد أحياناً تسعدني أكثر من أمور أخرى في هذه الحياة  
— إن الناس من أمثالي يفضلون العيش وكأنهم على أهبة السفر دائماً.  
— عادة ما يكون نمط الحياة التي تتحدثين عنه هو الأسهل؟  
— ربما.

ردّد مع نفسه: على المرء أن لا يضيع عليه فرصة كهذه. سألها: مشابهتك ومنافذه، ورغ  
ستغادرون إلى بغداد؟

— بعد منتصف الليل.

— هل نتفق أن نلتقي بعد عودتكم من بغداد؟

— اقتراح جيّد.

يوزع نظراته بينهما، هذا الرجل الع  
كثيرة، فجواز سفره مليء بالأخر  
وثورات وهي الباحثة عن التاريخ  
نفسه: إن لغة العيون أجمل من  
رى وتأجّلت إلى زمن آخر؟  
تأجّلت إلى زمن آخر؟

\*\*\*

مسح عينيه، فغابت عنه تلك الصورة الجميلة، ونسمة الهواء الطرية التي  
بشت روجه، ووجد نفسه وحيداً بعد أن غادرت جارتته. فحرارة الجو  
سمة منذ بداية الصباح، وبدلاً من أن ينعش جسده بهواء رطب، وجد  
ضيق البيت يغطيها الطين والتراب، وزهور الحديقة ونباتاتها غطتها طبقة  
ضياء من تراب عاصفة الليلة الفاتنة.

لا ماء ليغسل جسد الأرض ونباتاتها، ولا كهرباء ليخلص روجه من لسع  
لواء المحمل بالتراب، كل الأشياء التي يتلمّسها تنبعث منها رائحة التراب.

عجيب أمر هذا التراب، ينفذ إلى كل ناحية في المنزل، الذي أغلق أبوابه  
بشبابيكه ومنافذه، ورغم ذلك فهو موجود يستقبلك في هذا الصباح  
لتسبح، راح يتحرك في البيت دون أن يفعل شيئاً محدداً.

مرّت في الشارع ست سيارات همر تحمل جنوداً أمريكان.. مرّت بسرعة،  
رَدَد: يسترنا الله من هذا اليوم الذي بدأ بالتراب والحرق وانقطاع الكهرباء والماء.

لكنه سأل نفسه: وما الجديد؟ سوى هذا الضيف الذي حلّ علينا ثقيلاً  
البارحة؟ اللحظات تمرُّ ثقيلة ومتعبة. فتح باب البيت الخارجي، نظراً يمينه

ويساره، هدوء لا حركة فيه. أين ذهب الناس الذين كانوا يملأونه — آية فرصة للتأمل وروحاً.. لقد غادرت تلك الأيام والليالي، التي كانوا فيها يبعثون أفكارهم ولا ساعة من كهرباء، وينعشون روحهم، وهم يتناولون كاسات الشاي في أمسيات الصيف. بط بأهلك وناسك وججب  
لقد ذهبت تلك الليالي، وأصبحت مجرد صور في ذاكرة متعبة، تطلق عليك النار سواء من  
أحياناً نافذة تمرُّ من خلالها نسمة هواء باردة إلى روح عطشى للفرح الحي، فأنت متهم إلى أن  
حلّ بالناس؟

— هذا حديث لا فائدة  
كلُّ يختبئ في بيته، أو يرسل بعض أولاده إلى أماكن أخرى، يعتقد — أحد طلبتي أنجزت من  
أكثر أماناً في مساحة لا أمان فيها. كلُّ لحظة تختزن مفاجئاً ورعباً، الفنّ الحثي في بلاد الأنا  
يتبق في ذخيرتك إلا الحواس التي تعني لك الحياة أو الموت. توقظ في عا — ها هي الحياة مستد  
فرصة الهرب من الخطر الكامن في الطرقات.

\*\*\*

أمس اتّصل به صديقه الآثاري والأستاذ في الجامعة، يسأله إن بعثه الأصول، والتفنن  
لا يزال حياً.  
الناس يلوذون من الموت

ضحكا مع بعضهما، وأكملتاً ثرثرتهما. أخبره أن لديه مشروعاً أقاص الأسر والاعتقال بن  
ينجز خارطة آثارية جديدة للعراق، وأن كلُّ أولوياتها مهياً ولكنه لا — لا تنس أن تُكرّر  
الفرصة للعمل. — سأتصل، وقد أغاد.

استغرب من كلام صديقه، وقال: لديك كلُّ هذا الوقت، وأنت — أين ستذهب؟  
البيت، ولا تجد الفرصة؟ — سأسافر حتى ولو  
— تنتقل من موت إلى

الناس الذين كانوا يملأونه — آية فرصة للتأمل والتفكير المبدع، وأنت في غابة بلا عذّة للبقاء، لا  
لتي كانوا فيها يعيشون أفكر ولا ساعة من كهرباء، يلسع وجهك هواء مملوء بالتراب والرمل، والرعب  
شاي في أمسيات الصيف.. ط بأهلك وناسك وجيرانك، وأنت لا حول ولا قوة. تخرج من البيت  
صور في ذاكرة متعبة، تطلق عليك النار سواء من أشخاص لا تعرفهم، لا لسبب إلا لأنك تسكن في  
إلى روح عطشى للفرح الحى، فأنت متهم إلى أن تستطيع إثبات براءتك، إن استطعت ذلك.  
— هذا حديث لا فائدة منه.

إلى أماكن أخرى، يعتقد — أحد طلبتي أنجز مناقشة رسالة دكتوراه عن تأثير فنون بلاد الرافدين  
لغة تحتزن مفاجاتها ورعبها، الفن الحيثي في بلاد الأناضول وشمال بلاد الشام.  
حياة أو الموت. توقظ في عا — ها هي الحياة مستمرة، رغم كل ما يحدث.  
— نحن نبحث في ماضينا، وتركنا حاضرنا الذي يتضاد مع الفن  
الحضارة.. أصبحنا لا نعرف إلا الحوار عبر القتل، والاحتلال الكريه،  
في الجامعة، يسأله إن يعثره الأصول، والتفنن في البحث عما يفرق بين الناس ويدمر إبداعهم.  
الناس يلوذون من الموت والذل وضيق فسحة الحياة، أو يتكدسون في

أخبره أن لديه مشروعاً قفاص الأسر والاعتقال بتهمة انتمائهم للوطن.  
— لا تنس أن تُكرّر الاتصال وتطمئني عنك.  
— سأصل، وقد أغادر العراق بعد امتحانات الطلبة.

— أين ستذهب؟  
— سأسافر حتى ولو إلى الصومال.  
— تنتقل من موت إلى موت؟

— ربما هناك أرحم.. فالموت قد يكون هناك أخفّ وطأة، أو أقلّ أحرّكم أحبّها في تلك  
— يبدو أنّنا أصبنا بداء النملة المجنونة.  
— نملة ومجنونة.. نحن المجانين.

— في إحدى الغابات الممطرة، توجد فطريات تصيب النمل  
وتتجذّر بعقولها الصغيرة، ثم تنبت فيها خرطومًا يبدأ بالنمو والطول  
رأسها، وتصبح النملة مجنونة، تتحرّك وتضطرب دون أن تدرك ما  
ويتركها بقيّة النمل ويهرب من المكان، لكي لا يصاب بالعدوى.  
ضحكا مع بعضهما على أمل أن يعاودا الاتصال مرة أخرى.

\*\*\*

أحسّ أنّ قلبه عاد يجزه، مرّر يده على المكان، ألمّ حادّ مثل لسعة نراب الأحمر.  
آه.. لهذه القلب، يبحث اليوم عن قطرة ماء صافية تنعش نبضاته، وتطلقه — هل يمكن أن يتحسّر  
فضاءات مسحورة بالعشق، وإلى بحار ترخر بالمحار واللؤلؤ.  
يتذكّر الآن أوّل رفقة لقلبه، كان يسترق النظر إليها مع ملاذاً تمدأ عندها روحه  
الشمس، عبر شبّاك بيته، تحتال بثوبها الفضفاض، ياقوتة تتوهج فتنة  
من حياة. كانت تغمره سعادة يسبح فيها في بحر من الضوء والمتعة. طير بعيداً في فضاء  
مضى زمن طويل، لكنّه لم ينس، لحظة غادر بيته ذات يوم مسرع في حركاته المولود  
وقفت أمامه للوداع. نظرت إليه وبادلها النظرات، وأحسّ بحزن عميق، وتساقط مطر غزير.  
الحياة تمرب من بين ضلوعه، وشلال من العواطف الحزينة يعصف بقلبه راب. الشجر صار أكثر  
عطرها، رائحة للحياة و

وت قد يكون هناك أخف وطأة، أو أقل أضراراً من نملة الجنونة.

كم أحبها في تلك اللحظة، حرّكت يديها، وشفثاها ترتجفان، وبدا  
من يبحث ليجد من ينتشله من مأزقه. ولكن الأمور سارت بسرعة.  
غادر، ولم يعد يراها حتى هذه اللحظة.  
توجد فطريات تصيب النمل إلا بحث عنها أينما حلّ، امرأة من نور وعيون مسحورة بالبحر، تنتظر  
الذي لا يكون، مدى يلاحق مدى، ورحلة لا تجد موافقها،  
ما تدرك ما تعواصف تعبت بأشعتها. وأمان حاملة تسافر في فضاء مفتوح لا نهاية له.  
رائع أن يستطيع الإنسان الاحتفاظ بهذه الذكريات، ولكن ما فائدتها،  
الدينا تغيرت عن ذي قبل.

هو الآن يحسُّ بألم عميق، يبحث عن هدوء في أمن مفقود، وسط هذا  
يده على المكان، ألمٌ حادٌ مثل لسعة لترات الأحرار.

قطرة ماء صافية تنعش نبضاته، وتطلقه — هل يمكن أن يتحوّل القلق إلى راحة، والهاوية إلى مكان آمن؟ تساءل مع  
بحار تزخر بالحار واللؤلؤ.

كان يسترق النظر إليها مع ملاذاً تمداً عندها روحه، وينبض فيها قلبه بعذوبة نغماتها.  
أغمض عينيه، وهو يستمع إلى مقطوعته الموسيقية المفضلة، أحسُّ أنه  
ياقوتة تتوهج فتنة في أغمض عينيه، وهو يستمع إلى مقطوعته الموسيقية المفضلة، أحسُّ أنه  
يطير بعيداً في فضاء مفتوح، تغمره سعادة تمنّاها. تهدده الرياح كراقص

لحظة غادر بيته ذات يوم مسرعاً في حركاته المولودة من روح الموسيقى.  
وتساقط مطر غزير.. مطر تنتشي به الروح، ويخلص الجسد مما علق به من  
دها النظرات، وأحسُّ بحزن عميق، والشجر صار أكثر اخضراراً والأزهار متوهجة بألوانها، والأرض تطلق  
من العواطف الحزينة يعصف بقلبه. تراب. الشجر صار أكثر اخضراراً والأزهار متوهجة بألوانها، والأرض تطلق  
عطرها، رائحة للحياة والتجدد. كلُّ يغتسل من عاصفة التراب المتسخ.

مرّ زمن كرمشة عين، سكتت بعده الموسيقى وأحسّ أنّه يسقط  
سماوات زرق. عدلّ من جلسته، مسح عينيه، ما زال التراب يمرّغ  
شيء، ويحشم على الأرض والأزهار والشجر.

كان حلماً من موسيقى، وعزفاً على أمان تنبض بالبقاء.

تنهّد وتساءل: ما الذي يقلقني؟ أهذا السكون الممتد، أم توقّع لحظة أن أقذف بجسدي على

وهج قادم، إنك لا تستطيع صياغة مسار آخر لحياتك، فالزمن تركك تيرتطم بساحله، وصوب  
به كلّ السنين التي مرّت، وهو الآن يبدأ الدورة لصالحه. فقد كنت اللحظة أملك أشياء  
البرهة الحاضرة أمامك وترى ما وراءها، لكنك تركت تأمل الحياة قبل الجمال.

يسرق منك الليل صخب ألوان حياتك فتستحيل إلى شبح بألوان خالٍ ظلّ يبحث عنها في  
وتكون أيامك استراحة بين موت وموت في وقت نخون فيه الأحياء الذين إلى عبد الله:

نفقدهم بالحديث عن الممكن في زمن تُدسّ فيه الأرض بأحذية المحتلّ شكراً على أشياء  
وتبحث فيه الحقيقة عن وحدة الرجال الذين لا تفرّقهم الهزيمة. وصلت متأخرة جداً،

هزّ رأسه وكأّته ينفض الغبار عن ومضات أفكار تأخذه إلى مديحة اللحظة (غيظ) إلى أعداء.

بعيدة، وضحك وقال: هل هو زمن النمل المجنون، أم زمن الذين لا يُظهرون أنت.. ستضطر إلى تمهيد

ضعفاً وتضييق بهم الأرض أحياناً كثيرة، لكنّ السماء تضيء لهم شراً أخيراً، فلم يعد أمامي

فيمضون في طريقهم الصعب. زمانان هما إذاً: أحدهما معبّر، وآخر يستعد اهتمّ بنفسك ولا تدع

خفقة الريح على سعف النخيل، واضطراب الضوء بين قطرات الماء نخض من كرسيه

من البيوت والذي المنهمر.

الكهربائية المنهكة، بيد

(11)

بحث في أوراقه القديمة: وجد رسالة كتبت فيها:

— أنا الآن أفتح نافذتي على الشاطئ، أستقبل أشعة الشمس، كم تمنيتُ  
آخر لحياتك، فالزمن تركك تهربتطم بساحله، وصوت كاظم الساهر يملأ مكاني.. أشعر أني في هذه  
الدورة لصالحه. فقد كنت في اللحظة أملك أشياء كثيرة، وأحتاج إلى أخرى، آه ما أجمل الإحساس  
لكنتك تركت تأمل الحياة قبل بالجمال.

ظلَّ يبحث عنها في أوراقه وجد بطاقة ملوَّنة منها:  
إلى عبد الله:

شكراً على أشياء كثيرة لا أستحقها، شكراً على دعوتك حتى وإن  
وصلت متأخرة جداً، ولتعلم أني أحتفظ بأصدقائي ما لم يتحولوا بأنفسهم في  
لحظة (غيظ) إلى أعداء. لقد عرفتك صاحب نفس حلوة كبيرة فأبقت كما  
أنت.. ستضطر إلى تحمّل حدودي وهي شبيهة بحدودك التي قرّرت فتحها  
أخيراً، فلم يعد أمامي إليك أحد.. قوة النساء جميلة.. ألا ترى ذلك أيضاً..  
اهتمّ بنفسك ولا تدعُ روحك تضجُّ بكلّ شيء..

نهض من كرسيه واتجه إلى النافذة، وأخذ يرقب الضوء الخافت المنبعث  
من البيوت والذي بدأ مضطرباً بسبب عدم انتظام حركة المولّدات  
الكهربائية المنهكة، بينما أخذت الريح تعبث بالأشجار.

وظلَّ يبحث عنها كلَّ هذه السنوات، ربما كانت مجرد كلمات و  
غلالات سحب في الفضاء.

لا.. لم تكن مجرد كلمات، كانت روحاً تضحُّ بالحياة. كتب على ورقة  
بيضاء:

أريد أن أقول لك بأني كنت أحبُّك وغداً ربما أكتب لك مرةً أخرى،  
أشعر أحياناً أنّي تائه،

ربما سيكون بوسعك زيارتي يوماً،

أمل أن أراك من أعماق قلبي.

إني متألم أن السنوات تمضي سريعاً بدونك.

وكأنها تريد أن تنهي الأشياء بسرعة.

فخذيني بفرحك وضحكاتك.

تعالى إليّ وامنحيني قليلاً من قوتك،

تعالى واقتربي من وجهي، فأنا أحبُّك.

(12)

أبصر عبر النافذة أوراق الشجر الصفرة منثورة على الأرض تاركة الأغصان عارية إلا من بعضها. وغابت الزرقة عن السماء، لتهب الرمال والأترية من كلِّ جانب حاملة معها الأوراق الصفرة وذكريات صيف ساعن. قال عبد الله:-

— حتى الأوراق المصفرة جميلة أيضاً، والخريف هو انتقال رشيقة بين تفتح الحياة في الأرض، والسباحة في بحر من الضوء، والبحث عن الدفء في الأيام الممطرة والباردة التي مهما تدرت فيها بملابس سميكة لا بدَّ أن تصاب بالمرض.

والأوراق حتى وإن تساقطت أرضاً فهي ترسم لوحة أرجوانية جميلة. — لقد عشت فيما مضى أياماً جميلة مليئة بالذكريات الحقيقية. ابتسم وانتقل إلى مكتبه يستعيد صوراً من سنين مضت.. مرةً سافر إلى موسكو، وقيل له إنه سيلتقي في المطار من يستقبله. لكن ما إن وصل أرض المطار حتى لم يجد أحداً في انتظاره. يوماً أصابه القلق، لا لغة روسية يعرفها، ولا رقم هاتف يتصل به. تسلّم حقائبه وظلَّ واقفاً، أمّا عيونه فكانت تتجوّل في صالة المطار بانتظار الآتي.

كلّما مرّ الوقت أظهرت حركات يديه ووجهه مساحة القلق في داخله،  
حتى وصل الحال به أن يلعن الساعة التي وافق بها على هذه السفرة.  
— تبدو مزعجة منذ لحظاتها الأولى.

هكذا حدّث نفسه، لكنّ صوتاً آخر من داخله كان يطلب منه الهدوء  
والانتظار قليلاً. ورغم كلّ محاولات الهدوء والانتظار كان يحسّ وكأنّه تلقّى  
ضربة موجعة على رأسه.

— لم أحسب لهذا حساباً، ولكن ما يزال هناك متسع من الوقت، ولا  
يستوجب الأمر كلّ هذه السرعة في خيبة الأمل.  
أحسّ بالتعب وبصداع في رأسه، ولكن عينيه ما زالتا تبحثان بين  
وجوه صالة الانتظار.

من الباب الرئيس للدخول إلى الصالة لمحها متجهة إليه.  
— هل أنت عبد الله؟

— نعم.. كنت أنتظرك.

— آسفة جدّاً على التأخير.. أرجو أن تعذرنى.

تبادلا النظرات، وارتسمت على وجهها المتشرّب بنمش الصيف،  
ابتسامة دافئة، بقيت بعدها الفتاة رشيقة صامته.

حاول عبد الله أن يستنجد بكلّ خبراته ليقطع الصمت، فلم يجد سوى  
ابتسامة عريضة رسمها على وجهه.

كانت الفتاة ترتدي قميصاً رمادياً وبنطالاً أسوداً وشالاً أبيضاً يلتفُ  
بأناقة حول عنقها. وجهها تزينه عينا زرقاوان واسعتان، تضيفان عليه  
مسحة مثيرة.

همس مع نفسه:

— ما أجل هذه الفتاة. صحيح هي تأخرت في الجيء ولكنها أرحم من  
مُرافقٍ يأتي باكراً.

قطعت هي الصِّمْتَ بينهما:

— أنا طالبة في السنة الأخيرة من معهد اللغات، وسأرافقك طوال مدة  
بقائك هنا. وهذا ضمن نظام المعهد الذي أدرس فيه، حيث يوفر لنا فرصة  
التطبيق العملي.

لم يخطر ببال عبد الله موضوع ما يتحدث فيه في تلك الدقيقة فهو ليس  
معنياً إن كانت مرافقتها له تطبيقاً للدراسة أو واجباً وظيفياً، لكنه كان  
مرتبكاً بعض الشيء.

تساءل مع نفسه:

— هل عندما نقف أمام امرأة جميلة نصاب بالارتباك!  
كانت الضوضاء قبل أن يغادر صالة المطار تزيده ارتباكاً وهو في حالة  
الانتظار، ولكنه الآن يضيق ذرعاً بهذا السكون الذي يصعب فيه التحدث بعفوية  
مع الفتاة.

حاول أن يجد لنفسه عذراً في ظلّ هذا الارتباك:

به ووجهه مساحة القلق في داخله،  
فق بها على هذه السفارة.

من داخله كان يطلب منه الهدوء  
والانتظار كان يحسّ وكأنه تلقى

ل هناك متسع من الوقت، ولا

ن عينيه ما زالتا تبحثان بين

تجهة إليه.

لتشرب بنمش الصيف،

لصمت، فلم يجد سوى

— أي منّا قد يلجأ إلى نفسه للحظات ليحسّ بعدها بعمق سعادة اللقاء  
بالآخر؟

سألته: هل تحدّثني؟

— لا، ولكنني أستحضر لحظات انتظاري في صالة المطار وأتساءل كيف  
كنت سأتصرّف لو لم تأتِ.

— ولكنني أتيت، وها أنا معك، وأصبح الزمن الذي تأخّرتُ فيه من  
الماضي.

— ولكنّ الماضي غالباً ما يكون تأسيساً للحاضر سواء بالبناء عليه أو  
من خلال تجاوزه.

— ولكنّه ماضٍ، وليس حاضراً.

أخرجت علبة سجائر من حقبتها، وبدأت التدخين.

— ما رأيك بعد أن ترتاح قليلاً في الفندق أن نذهب بزهة إلى إحدى  
الحدائق الجميلة.

— ممكن.. فمعك ستبدو كلُّ الأماكن جميلة.

عندما دخلا المتزه شعر بانتقاله إلى عالم جديد، أوراق صفر تساقطت

من أشجار تشابكت أذرعها، ومنحت ظلالاً للعابرين.

— أليست هذه لوحة فنية، انظر كيف يتداخل اللون الأرجواني مع  
تدرّج اللون البنّي.

كانت الأوراق كثيفة، والحركة من خلالها تمنح السكون موسيقى ناعمة.

شعر عبد الله أنهما أصبحا يمشيان متلاصقين تقريباً، فيما بدأ الشفق وكأنه غطاء وردي يلف تلك الأشجار العارية.

\*\*\*

ابتسم مع نفسه، وهو يسترجع تلك الصور الجميلة وقال: — أيُّ شيء يحدث يصبح قصة من الماضي. وفيما كان يستمتع بهذا التذكُّر، رنَّ هاتفه النقال.

— بابا. احضِرْ حالاً للمدرسة، حالاً، لا تتأخر، وسمع بكاءها. تشوشت الصور أمام عينيه، وضاعت منه لحظات الهدوء. وأحسَّ أن الطريق إلى المدرسة طويل جداً، رغم أنها لا تبتعد كثيراً عن بيته. شاهد سيارات كثيرةً وأناساً يركضون باتجاه المدرسة، وآخرون ينطلقون منها بسرعة.

— ماذا حصل؟

— سقطت خمس قنابر هاون على المدرسة. لم يعد يرى سوى دماء لم تجف بعد على أرض ساحة المدرسة، وصور متداخلة لفتيات يصرخن، وأمّهات يبحثن عن بناتهن.

صاحت به ابنته:

— بابا، لنذهب إلى البيت بسرعة.

حسَّ بعدها بعمق سعادة اللقاء

صالة المطار وأتساءل كيف

زمن الذي تأخَّرتُ فيه من

حاضر سواء بالبناء عليه أو

حين.

نذهب بزهة إلى إحدى

أوراق صفر تساقطت

اللون الأرجواني مع

- كيف حدث ذلك؟

— لا أدري.. أذهب إلى البيت، أريد أن أرى أمي.

كانت الطالبات في وقت الاستراحة عندما سقطت قنابر الهاون التي أطلقت من الحيّ المجاور، واحدة كانت إصابتها مباشرة، وأخريات، اكتفى الموت بأن يرسم على أجسادهنّ شارات من الدم.  
— مها استشهدت يا بابا.

— أحسّ أن الزمن يتوقف.. شعرٌ أسودٌ ودمٌ يغطّي الوجه الوردي، وعينان جامدتان، وصباح يمضي وآخر يأتي، ومها راحلة.  
صرخ عبد الله: ورق أخضر يتساقط، لكنّ الشجر يبقى مورقاً تفوح منه رائحة زهر ثماره.

— لقد رحلت، لكنّها ستحضر كلّ صباح لترسم لوحة في أفق الضوء المتدفّق، لتوقظ فينا آمالاً وأحلاماً جديدة قد تتحقّق أو لا تتحقّق، ولكن لا تنتهي.

(13)

الشمس، بدأت تترك نهارها وهي تغطس في الأفق محاطة بغيوم تلونت بالحمرة.

سألت أمل: هل تحبُّ الغروب كثيراً.. أراك يوماً وأنت تقف أمام النافذة وكأنك تودع الشمس.

— إنه يوم آخر، أنا لا أحبُّ النهايات، حتى عندما أكون في سفر طويل، يرهقني امتداد الوقت لكني لا أودُّ انتهاء الرحلة.. في الرياضيات يقولون اللاهائية. أنا من عُشَّاقها.

وقفت أمل إلى جواره:

— المنظر هنا جميل.. دعنا نقرب الأرائك بمحاذاة النافذة.

وراح عبد الله يحدثها عن مدن يتزاحم فيها الضباب والثلج ومحطات المترو، وعن جزر متلائة بالضوء، وهو يحاول أن يدخل بعض البريق والإحساس بالسعادة ليخفي عنها ولو للحظات حالات الذعر الصامت حيناً والظاهر خلف سياج البيت، أراد أن يبعث فيها في هذه اللحظة دفقاً واسترخاءً بلا توتر. حدقت نظراتها به، همس في أذنها:

— سأحافظ عليك والأولاد بكل ما استطعت من قوة.

— عليك أن تحتفظ بنا، وتشعرنا بالأمان ولا تغادر هدوءك، فعندما تغضب نحس أن هناك خطراً ما يقلقك، صحيح أننا نتظاهر أحياناً بالقوة إلا

بيت، أريد أن أرى أمي.

الاستراحة عندما سقطت قنابر الهاون التي حدة كانت إصابتها مباشرة، وأخريات، سادهنَّ شارات من الدم.

أسودُ ودمٌ يغطِّي الوجه الوردي، وعينان، ومها راحلة.

يتساقط، لكنَّ الشجر يبقى مورقاً تفوح

كلَّ صباح لترسم لوحة في أفق الضوء حديدة قد تتحقق أو لا تتحقق، ولكن لا

أنَّ الخوف كثيراً ما يملأ قلوبنا، إننا ننظر إلى عينيك، ونستشعر الأمان من بريقها.

هزَّ رأسه بالإيجاب، وعلت صوته موجةً محتلجة مليئة بالحنان: كيف أستطيع العيش بدونكم. ففض من كرسيه وفتح التلفزيون، باحثاً عن نشرة للأخبار صباح: أمل تعالي وانظري.

— ماذا؟

— إنها ماري لوفان.

— ومن هي ماري لوفان؟

— إنها مصورة تلفزيونية التقيتها قبل سنوات في عمان.

— ما بها؟

— سنرى.

وبدأ يصغيان إلى تفاصيل الخبر: ثم اختطافها قبل أيام، والخاطفون يهددون بقتلها، ما لم تنفذ مطالبهم، بدت واهنة وضعيفة، وكانت الكلمات تتساقط من شفيتها وهي تبعث برسالة ترجو إنقاذ حياتها وتلبية مطالب خاطفيها.

قالت أمل: ما الذي أتى بها إلى هنا، ألم تدرك أن جميعها مخاطرة في حياتها، عليها، إذن، أن تتحمل أوزار قرارها.

— ولكنها إنسانة رقيقة، وهذا عملها. فالصحفيون يتواجدون في مناطق الخطر، إنها تعشق العراق، كانت تحدثني عن سومر: بداية الحضارة وأول الكتابة.

— لقد ضاعت

جعلوا من الموت طوفاناً

— أنت تُذكريني

القديمة.. حدثني هي

في وادي الرافدين: "الآ

وبطلها "أتراحاسيس"،

كلكامش وعلى لسان

وكل هذه القصص

الأرض، وأصبح ضحية

ولكن إله الحكمة "أي

الهلاك الذي ينتظر الناس

وذويه وما يستطيع جمع

ويحل الطوفان العظ

السفينة عدة أيام لترسو

وتأخذ المياه بالانحسار

التي سينتابها ندم شديد

الطوفان الذي أنقذ نسل

ليعيشا سعيدين إلى الأبد

— لقد ضاعت الكتابة والبداية ياسيدي في زمن الأسياد الجدد الذين جعلوا من الموت طوفاناً في أيامنا هذه.

— أنت تُذكريني الآن: الطوفان موجود في التآليف الأدبية العراقية القديمة.. حدّثني هي عنها عندما التقيتها، وهناك ثلاث قصص عن الطوفان في وادي الرافدين: "الأولى سومرية وبطلها زيوسدرا، والثانية مدوّنة بابلية وبطلها "أتراحاسيس"، أمّا الثالثة فقد وردت ضمن الرقيم العاشر من ملحمة كلكامش وعلى لسان بطل الطوفان أوتونابشتم.

وكلّ هذه القصص تشير إلى أنّ الآلهة غضبت من تكاثر عدد الناس في الأرض، وأصبح ضحيّهم يزعم الآلهة، فأرسلت غضبها إليهم لإفنائهم. ولكن إله الحكمة "أيا" الذي عرف بحبه للناس، حدّر رجل الطوفان من الهلاك الذي ينتظر الناس وحثّه على بناء سفينة كبيرة يحمل فيها أهله وذويه وما يستطيع جمعه من أصناف الطيور والحيوانات.

ويحلّ الطوفان العظيم فتغمر المياه الأرض كلّها وتتقاذف الأمواج السفينة عدة أيام لترسو في النهاية على قمة جبل. وبعد أن تهدأ العواصف وتأخذ المياه بالانحسار يخرج رجل الطوفان من سفينته ليقدم القرابين للآلهة التي سينتأها ندم شديد على أحداث الطوفان وهلاك الناس، وتمنح رجل الطوفان الذي أنقذ نسل البشرية من هلاك محققٍ وكذلك زوجته الخلود ليعيشا سعيدين إلى الأبد عند: "فم الأهمار".

بيك، ونستشعر الأمان من

مخلجة مليئة بالحنان: كيف

التلفزيون، باحثاً عن نشرة

في عمّان.

أفها قبل أيام، والخاطفون

واهنة وضعيفة، وكانت

ترجو إنقاذ حياتها وتلبية

لدرك أنّ مجيئها مخاطرة في

خفيون يتواجدون في مناطق

لبداية الحضارة وأول الكتابة.

— ومتى سينتهي طوفان الاحتلال والموت عندنا، ونشعر بالندم على ما يحدث الآن؟

— لا تخافي ياسيدة عمري، فالعراقيون ومنذ القدم كانوا بناة حضارة هيأت أسبابها الطبيعة وطوعها أبناءها حسب حاجاتهم ورغباتهم.  
أتعلمين؟ إن أول انتقال من الكهف إلى القرية حدث في العراق، وإن أول البيوت تأسست فيه ووجدت الأواني الحجرية والفخارية بألوانها الجميلة ونقوشها الهندسية والطبيعية، ثم ظهر الاهتمام بالأحجار الكريمة والمعادن..  
تصوري أن النحاس استخدم في العراق في الألف الخامس قبل الميلاد. وفي الألف الرابع قبل الميلاد، استخدمت الزوارق للنقل البحري، وفي 2800 ق. م ظهرت دول المدن التي تمثل أقدم أنظمة الحكم السياسية والتي توحدت بعد ذلك في دولة واحدة في عهد الأكديين لتكون أقدم إمبراطورية في التاريخ.  
عمّاداً تريد أن أحدثك.. هذا وطن أول لابتكار الكتابة في التاريخ. وفيه أسست أول مدرسة لتدريب وتدريب الطلاب الرياضيات والأدب والموسيقى والفلك والطب والقانون في الألف الثالث قبل الميلاد.  
هم يجلبون لنا الفوضى ويدمرون مؤسساتنا، و"أشنونا" الملك كان يصدر أول القوانين التي تنظم الحياة والحقوق والواجبات في حدود 2500 ق. م قبل تشريعات حمورابي بنحو قرنين من الزمن.  
— هذا زمان مضى، أمّا حاضرنا فغير ذلك.  
— هذا خزين في العقل والروح لا ينتهي.

— لَنَرَ الزمن القدام

— بالمناسبة العراق

منذ ولادة الإنسان.

من عيد الاكيتو لتقرر

بجتمية الموت، والعالم

وهو محاط بسبعة أسوار

حتى الآلهة، أحياء

الضيف، ويعود إلى

لقيامه وقهره الموت.

— حقه يموت في

للموت ليعود مع تفتح

أزهارها وزنابقها وقد

صمت، فهمت

— ستدبل صاحبتنا

— يبقى التمسك بـ

— أمل ذلك.

— تعرفين، يبدو أ

آخر مختلفاً كلياً.. وربما

يمكن فهم هذا التدمير

ت عندنا، ونشعر بالندم على ما

ومنذ القدم كانوا بناء حضارة  
حاجاتهم ورغباتهم.

تقوية حدث في العراق، وإنَّ أوَّل  
بحرية والفخارية بألوانها الجميلة  
بالم الأحجار الكريمة والمعادن..

الألف الخامس قبل الميلاد. وفي  
النقل البحري، وفي 2800 ق.

كم السياسية والتي توحدت بعد  
أقدم إمبراطورية في التاريخ.

ل لابتكار الكتابة في التاريخ.  
الطلاب الرياضيات والأدب

الثالث قبل الميلاد.  
لساتنا، و"أشنونا" الملك كان

والواجبات في حدود 2500  
زمن.

— لَنَرَ الزمن القادم، علَّنا نعيش لنرى ما تخبَّئه لنا الأقدار.

— بالمناسبة العراقيون معروفون قديماً بإيمانهم بالقدر. والقدر عندهم يبدأ  
منذ ولادة الإنسان. وإنَّ آلهة الكون تجتمع في اليومين الثامن والحادي عشر  
من عيد الاكيتو لتقرير آجال البشر وإقرارها بصورة نهائية. وهم يؤمنون  
بجتمية الموت، والعالم السفلي بنظرهم مخيف مظلم يأكل فيه الموتى الطين،  
وهو محاط بسبعة أسوار لكل منها باب ونهر.

حتى الآلهة، أحياناً، لا تنجو من الموت، فالإله تموز يموت في نهاية  
الصيف، ويعود إلى الحياة في الربيع. فكانوا يبكون لموته، ويقىمون الأفراح  
لقيامه وقهره الموت.

— حقّه يموت في تموز، فالصيف قاتظ والكهرباء مقطوعة، فيهرب  
للموت ليعود مع تفتّح الحياة باحثاً عن نسمة رطبة وعطور تبتُّها الأرض من  
أزهارها وزنابقها وقدّاح أشجارها المثمرة.

صمت، فهمست في أذنيه:

— ستدبل صاحبتنا مع الحرِّ والخوف والتذكُّر.

— يبقى التمسُّك بالحياة أملاً لا ينتهي.

— أمل ذلك.

— تعرفين، يبدو أنَّ بعض الأميركيان ينظرون إلى "اللاغرب" بوصفه  
آخر مختلفاً كلياً.. وربما نكون نحن بنظرهم قابلين للاستبدال، وإلا كيف  
يمكن فهم هذا التدمير البشع لهوية البلاد وقيمها وحضارتها. تصوّري: في

الأيام الأولى للعمليات العسكرية وقع أكثر من مائة أكاديمي أمريكي وأوربي بياناً ينبئ إلى الخطر المتربص بإرث العراق الحضاري النفيس جرّاء الاحتلال. — وما الذي حصل؟ تَمَّتْ سرقة المتحف والمكتبات وكنوز العراق، وتعرضت دار الكتب والوثائق للحرق. تحت حماية النار الأمريكية.

صمت عبد الله حزناً.. وقال ساخراً: لقد حررونا من كنوزنا الثقافية. — لا تستغرب.. مرّة سأل الصحفيون رامسفيلد عن الفوضى التي عمّت بغداد وسرقة المتاحف والمكتبات ومؤسسات الدولة، ردّ ساخراً: "مثل هذه الأمور تحدث عادة، إنها غير مرتبة، الحرية نفسها غير مرتبة، الناس أحرار بارتكاب الأخطاء وفعل الجرائم".

- يا عبد الله.. هذا كاوبوي عصره ولكن ما رأيك بمؤسسات علمية أوربية تشارك في هذه السرقة المنظمة؟

— كيف؟

— قبل أيام قرأت خبراً، بأن المتحف البريطاني في لندن اشترى مقابل 2.2 مليون يورو "ملكة الليل" وهي منحوتة بابلية عمرها أربعة آلاف عام تمثل امرأة مجسّمة بمنحنيات حادة وبجناحين تستند على عدّة أسود ومحمية بيومتين. والآثاريون يعتقدون أنها "أيشخيغال" الآلهة المعروفة بأنها ملكة الليل وأن ملكة الليل ستقوم بجولة عبر عدّة قاعات ومتاحف بريطانية.

— يقال إن للتاريخ لساناً.

— لقد قطعوا لسانه.

— في كتاب "أدب الرسائل — بين الألوسي والكرملي" ترى صفحات  
من تاريخ هذا النهب الثقافي أيام الاحتلال البريطاني 1917 وفيها قصة  
نهب الكتب وحرق المعابد، ومنها كتب دير الكرمليين.. وكتب الأب  
أنستاس ماري الكرملي، وكيف كان مثقفو بغداد، يجمعون الكتب المنهوبة  
من أيدي الناهيين ويعيدونها إلى الأب الكرملي.

— صورتان وتاريخان، والهدف نفسه.

ظلت صورة ماري لوفان عالقة في ذهنه، تمتى لو كان يستطيع أن يفعل  
شيئاً لها.

الذي أمريكي وأوربي  
س جراء الاحتلال.  
ات وكنوز العراق،  
الأمريكية.

كنوزنا الثقافية.  
الفوضى التي عمّت  
ساحراً: "مثل هذه  
رتبة، الناس أحرار

مؤسسات علمية

اشترى مقابل  
أربعة آلاف عام  
ة أسود وحمية  
وفة بأنها ملكة  
بريطانية.

(14)

قرّر عبد الله أن يزور مدينته الجنوبية، لكنّه وجد أنّ الحال فيها هو الحال نفسه في بغداد إن لم يكن السوء قد مدّ رداءه على مساحات واسعة. ربما تكون الأحداث ليست هي نفسها في كلا المكانين رغم أنّهما يجمعهما الاحتلال ولكن صورة الاحتلال هناك تأخذ وجوهاً كثيرة.

ضاقت روحه بما رأت فذهب إلى ضفة الشطّ، يبحث عن أمان لروحه، وعسى أن يجد عنده مراسي لأفكاره المشتتة.

جلس ينظر إلى الضفة الأخرى، غابات من نخيل، وأفق سرّحت فيه الشمس ضفائرها بانتظار قمر الليل فبدت كوجه بلوري يتموج فيه اللونان الأصفر والأحمر وينعكسان على وجه الماء.

قال محدثاً نفسه:

— جميلة هي الصلة بين القمر والشمس والشطّ، فالقمر والشمس عاشق وحببته، وفرح يكحله سواد الليل فتضيء من خلال عيون المحبين بوهج من أصداف البحر الفضية. أمّا الشطّ فتتبادل له عذوبة المدّ والجزر مع رقصة القمر حول الشمس، فلا قرار للماء ولا قرارة.

— آه ما أجمل هذا الشطّ، بوابة البحر. فعلى طول ضفته تتشابك ستارات الصيد مع صبر الصيادين، مثلما تتشابك أيدي المحبين، بشوق اللقاء

وانتظار الحلم تحمله الليالي. وهو شاهد لآلاف الرجال الذين عبروا منه إلى  
ساحات القتال يحملون زادهم وهمومهم وذكريات بيوتهم، ووجوه حبيباتهم.  
بعضهم عاد بقهقهات الفرح والشوق إلى المحيين، وآخرون بقوا  
مسحورين بالشطّ والأرض.

الساعة لم تكن تجاوزت الخامسة مساءً، والصيادون يتوزعون النهر، في  
كلّ زورق اثنان، أحدهما يقوم بالتجذيف، والآخر يرمي الشباك، ثم يبدأ  
سحبها ببطء. وفي كلّ مرّة ينتظرون صيداً. وكم مرّة رموا فيها شباكهم  
بجركتهم نصف الدائرية، وعادت إليهم خالية إلا من قطع الرصاص المثبتة في  
أطراف الشبكة.

إذن، هي لعبة الصبر والانتظار والتشبّث بالأمل.

ردّد عبد الله:

— منذ ثلاثين عاماً، كنت أرى المشهد نفسه. صيادون يرمون سنّاراتهم  
أو شباكهم في الشطّ وينتظرون بصبر، وما زالوا يمارسون صيدهم يومياً.  
إذن، لم هذا الضجر الذي أحسّه وكأنّ الدنيا قد أتمت آخر فصول  
مسرحيتها؟ ما يزال في الوقت بقية، وما زالت الحياة تخبيّ الكثير في قادمها.  
هي لعبة من الأمل والانتظار، خاسرها من يفقد صبره.

عاود النظر إلى ساعته، فقد تأخّر صديقه هشام عن موعدهما.  
التفت إلى الشارع مدقّقاً النظر بالمارين. لاحظ من بعيد رجلاً ممشوق  
القامة، تسكن وجهه ابتسامة لا تفارقه.

— هذا هو هشام  
كلمات المزاح بينهم  
قال هشام:

— هذا الشطّ  
عشقتها. كنت كلّ  
تطلّ عليّ بمتلى المك  
مسحورة بالحبّ. و  
ولكنّ شبابيك الشنا  
— لقد رحل

والذاهبين المحملين  
أنهكهم التعب ووشم  
والطلع.. هي مدينة  
وراح عبد الله ي  
كانت كلمات  
يبحث عنها في مدد  
المحطّة الأخيرة لم  
صلاحيتها، ولم يجد  
"آخر محطة وص  
آخر حيل.. كلّ وص

— هذا هو هشام، يتأخر عن الموعد، لكنّه يأتي. جلس بجانبه وتبادلا كلمات المزاح بينهما.

قال هشام:

— هذا الشطُّ يحفزني للغناء، كلّما جلست على ضفافه. يذكرني بامرأة عشقتها. كنت كلّ مساءً أجلس تحت شبّاك شناسيلهم وأبدأ الغناء، وعندما تطلُّ عليّ يمتلئ المكان بعطرها الذي يزيدني شوقاً وتؤجج روعي عواطف مسحورة بالحبِّ. وفي إحدى الأمسيات ذهبت إلى هناك، وبدأت الغناء، ولكنّ شبّايك الشناسيل لم تفتح. فقد رحلت.

— لقد رحل كثيرون.. فهذه مدينة تحطُّ عندها مراكب العائدين والذاهبين المحمّلين بالبخور والطور والتوابل. رطبها زاد للعاشقين الذين أنفكهم التعب ووشمت الشمس جباههم بسمرة تفوح منها رائحة الحمّار والطلع.. هي مدينة مسحورة بالشطّ.

وراح عبد الله يستعرض صوراً من ذاكرته، بينما بدأ هشام بالغناء.

كانت كلمات الأغنية حزينة تتحدث عن رجلٍ فقد حبيبته، وراح يبحث عنها في مدن أخرى، بالقطار، وتوالت المحطّات، وعندما وصل إلى المحطّة الأخيرة لم يجد أثراً لحبيبته، ووجد أنّ بطاقة سفره قد انتهت صلاحيتها، ولم يجد إلا عمود الكهرباء يتكئ عليه:

"آخر محطّة وصل.. وخيم علينا الليل، وعمر البطاقة انتهى.. والحيل آخر حيل.. كلّ وصل حدّ له، وأنا وعمود التيل". قال عبد الله:

جال الذين عبروا منه إلى  
يوهم، ووجوه حبيبهم.  
المخبين، وآخرون بقوا

دون يتوزعون النهر، في  
يرمي الشباك، ثم يبدأ  
مرّة رموا فيها شبّاكهم  
قطع الرصاص المثبتة في

يادون يرمون سنّاراتهم  
سون صيدهم يومياً.

قد أتمت آخر فصول  
تخبي الكثير في قادمها.

من مواعدهما.

من بعيد رجلاً ممشوق

— لقد ذكّرتني بالقطار، كنت صغيراً وكان والدي يصطحبني معه عند سفره إلى بغداد بالقطار. كانت المقاعد خشبية، وأجمل مكان للنوم هو الرفوف المخصصة لحقائب السفر. وكانت ساعات قبل النوم فسحةً يعلن فيها بعض المسافرين هواياتهم في الغناء، وغالباً ما يكون جنوبياً حزيناً. وعند سدة الهندية تصعد القطار بائعات القيمر، مثل فراشات ملونة، ساحرات في حركتهن، يعن أطباقاً صغيرة منه إلى المسافرين مع خبز حار وكأس من الشاي الساخن.. كانت هذه واحدة من متع القطار.

— بدأنا نفقد هذه الأيام حتى المتع الصغيرة.

— هل الناس تغيّرت؟ أم أنّ متطلبات الحياة دفعت سلوك الناس للتغيّر؟

أم عوامل أخرى فرضت قيمها وبدت هي الظاهرة للعيان؟

ساد صمت لبرهة بينهما، قال بعده عبد الله:

— أتذكر ونحن صغار، إنّ معلّمنا في المدرسة كان يعرفنا ويعرف أهلنا،

وينقل لهم ملاحظاته عن مستوانا الدراسي.. وعندما يحضر غريب لمحلّتنا

كانت الناس تستقبله قبل أن تدلّه على المكان الذي يريد.

فما الذي غيّر الحال؟— غيرّها أمور كثيرة.

— أصبحت مشاهدة الجثث في صباحات المدينة لا تبعث على

الاستغراب.

— ما زالت في ذاكرتي صورة مقهى هاتف، المبنية على طراز الشناشيل

تتوسطها شجرة كبيرة يجلس تحت ظلّها موظّفون وسياسيون ومثقفون من

شقي الاتجاهات الفكرية والسياسية.. ومع تصاعد دخان السكائر، كانت  
تتصاعد أصوات المتحاورين، ولكنها لم تصل يوماً إلى رفع الأيدي.  
التفت كلٌّ منهما للآخر، بعد أن كانت نظراتهما ممتدة إلى الأفق، ثم  
شجى هشام بصوته وهو يراقب غابات النخيل على ضفة النهر: عينك غابتا  
نخيل ساعة السحر عينك.. ولم يكمل، فقد كانت هناك غصة في الروح  
كافية لصمته.

لدي يصطحبني معه عند  
وأجل مكان للنوم هو  
قبل النوم فسحة يعلن  
كون جنوبياً حزيناً. وعند  
ات ملونة، ساحرات في  
مع خبز حار وكأس من

مت سلوك الناس للتغير؟  
العيان؟

ان يعرفنا ويعرف أهلنا،  
لما يحضر غريب لمحتنا  
ريده.

المدينة لا تبعث على

شية على طراز الشناشيل  
سياسيون و مثقفون من

(15)

قبل أسبوعين اتصل صديق عبد الله من لبنان، بعد انقطاع بينهما دام أكثر من سنة:

— كيف حالك هذه الأيام؟

— الزمن يسرق أيامنا.

— لماذا لا تأتي إلى لبنان؟

— وماذا أفعل هناك؟

— تعال ولو لأسبوع واحد، نناقش بعض الأفكار حول النشر والكتاب.. ثم إني قد دعوتك إلى جاز القمر.. أتذكر.. ما زالت دعوتي قائمة لك ولصديقنا عبد الحليم.

بعد أيام كان عبد الله وعبد الحليم في المنصور عند معرض بغداد الدولي، يبحثان عن شركة تقلّهما إلى سوريا. قال لهما صاحب الشركة: إنَّ أجرة السيّارة الصغيرة إلى هناك ثلاثمائة دولار. أثار الأمر استغرابهما.

— ألم تكن مائة دولار فقط؟

— الله يرحم أيام زمان. . هذا المبلغ أجرة العودة أو أقل منه، لكن من بغداد إلى سوريا الأمر مختلف، فالمغادرون كثيرون، بينما العائدون إلى بغداد أقلُّ بكثير. قررا السفر إلى الموصل، ومن هناك إلى سوريا. فكُلّفهُ السفر ستكون أقل. الموصل تعني لعبد الله الكثير، عاش أياماً جميلة فيها، فهو يحسُّ

أما مدينة متماسكة يعشقها أهلها حدّ الهوس، وهي تعني له أصدقاءه: أمجد توفيق، د. نجمان، أمجد سعيد، د. مزاحم، معد الجبوري وآخرين في الجامعة ومركز البحوث.

— ترى أين هم الآن.. لا وقت لديه للاتصال بهم وقد تغيّرت أرقام هواتفهم وأماكنهم، هذا الهاتف النقال غير كل شيء.  
أجابه عبد الحليم: ربما قرّب كل شيء.

عند وصولهم إلى نقطة الحدود السورية، لاحظ عبد الحليم أنّ صديقاً له يجلس ضيفاً عند ضابط المركز الحدودي. — إنها فرصة لننجز إجراءات الدخول بسرعة.

سَلِّمًا عليه وعلى ضابط المركز وجلسا. فيما أرسل مضيفهما جوازي سفرهما لغرض ختم الدخول.

بعد دقائق أعيد جواز عبد الحليم إليه بعد ختمه فيما بقي عبد الله في الانتظار. مضت أكثر من نصف ساعة، وبدأ القلق يسيطر عليه:

— ترى لماذا هذا التأخير؟ بعد وقت آخر تمّ جلب الجواز وسُلم إلى الضابط، وهمس الرجل في أذنه ووقف بانتظار الأمر. سأل ضابط المركز عبد الله:

— هل كان لديك جواز سفر دبلوماسي أوروبي؟

— لا.

— أنت مطلوب من الإنتربول بتهمة جنائية.

— معقول؟

— نعم، ولأنك معروف من قبل صديقنا، سوف نرودك بكتاب إلى الجهة المعنية بالأمر في دمشق.

كان الوقت ظهراً وصديق عبد الحليم يحاول أن يخفف من أهمية الموضوع، وعبد الله لا يجد تفسيراً للأمر برمته.

— معقول أنني مطلوب للإنتربول، وبتهمة جنائية ودولية أيضاً. لو كان الموضوع سياسياً لكان أهون من أن يكون جنائياً. لم يستطع عبد الله أن يتناول الغداء، وقرراً هو و عبد الحليم السفر مباشرة إلى دمشق.

في المكتب المسؤول عن متابعة قضايا الإنتربول، تسلّم الضابط الظرف الذي يحوي الكتاب المرسل من الحدود. لم تظهر على وجه الضابط ملامح محدّدة تعطي عبد الله انطباعاً حول مصيره.

بقي عبد الحليم في غرفة الضابط وانتقل عبد الله إلى غرفة أخرى، وتوالت عليه الأسئلة: اسمك، عمرك، عملك، اسم أمك، كنت في.. لديك جواز سفر دبلوماسي أوري...

شعر عبد الله أنه وحيد تحاصره الأسئلة.

— ألم يكن أحدى لي أن أبقى في بيتي من أن أكون هنا متّهماً ومطلوباً؟ صممت الأسئلة، ومزّق القلق سكون روجه، وبقي جسده بلا حركة سوى عينين تتابعان أصابع الرجل الذي يجلس في الطرف المقابل من الطاولة وهي تحرك القلم فوق الورقة الممتلئة بالكلمات.

— كلمات وكلمات.. قضيت العمر بالكلمات.

فكلُّ ما أملك هو الكلمات، وها أنا الآن محاصر بها ومصيري متروك  
بين حروفها.

غادر الرجل المكتب، وبقي عبد الله تدور في مخيلته صور كثيرة وردّده :  
— الحمد لله أن عبد الحليم موجود معي.. في الحدّ الأدنى يخبر أهلي بما  
حصل.

دقائق أحسّ عبد الله أنّها زمن طويل، لا يدري ما حلّ به في هذا  
الوقت، أهو إرهاق السفر الطويل أم قصّة الإنتربول. شعر أنّ لسانه جفّ  
وهو يفكّر بذلك، وأصبح التمسُّك بالأمل في الخروج من هذا المأزق غاية  
في الصعوبة لديه...

— ربما يحتاج الأمر إلى مخاطبات إدارية مع الإنتربول وسأبقى رهين  
نتائجها.

شعر كأنّه تائه لا يعرف من أين أتى، وإلى أين هو يسير. وبالرغم من  
ذلك فهو يحاول التمسُّك بشجاعة الأمل. عاد الرجل :

— مجرد تشابه أسماء سنرسل برقية إلى نقاط حدودنا بأنك لست  
المقصود. ونأسف لإزعاجك، ونتمنى لك وقتاً جميلاً.

— أليس غريباً حقاً أن تصادفنا مثل هذه الأمور رغم كلّ الوجع الذي  
نحاول نسيانه؟

— نعم ولكنّها تأتي لتزول.

بالكلمات.

الآن محاصر بها ومصيري متروك

ور في مخيلته صور كثيرة وردد :

ي.. في الحد الأدنى يجبر أهلي بما

لا يدري ما حلّ به في هذا

الإنتربول. شعر أن لسانه جفّ

في الخروج من هذا المأزق غاية

مع الإنتربول وسأبقى رهين

لي أين هو يسير. وبالرغم من

الرجل :

نقاط حدودنا بأنك لست

جميلاً.

لأمور رغم كلّ الوجع الذي

— لترميننا الأقدار بما تشاء.

\*\*\*

في منطقة جونية في بيروت كان البحر يطلُّ من نافذة غرفته في الطابق الثالث. سطح البحر الأزرق الصافي يمتدُّ منكمشاً ليلتقي بسماء زرقاء عند خط الأفق البعيد.

أمّا عند الشاطئ فتتكسر الأمواج على حاجز الكورنيش. هنا يبدأ المشهد الذي أنتظره منذ أن أستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً. بريق بلون الأفق الأزرق يتنامى بسرعة. يتهاوى على مقعده، الشمس بدأت تشعل أشجار الكرز والصنوبر، وسط غيوم بيض برّاقة، ورجال ونساء يمارسون الركض على الرصيف.

بعدها خرج وعبد الحلّيم إلى الكورنيش، وبدأت أنفاس البحر المالحة تلامس أنفاسهما، وازداد الأفق ضياءً واتساعاً. كانت الطريق جميلة. قال عبد الحلّيم: أشعر أن روحي وجسدي متعشان هذا الصباح.

— راحة البال منبع كلّ سعادة وهي تعيد الانسجام بين جسد الإنسان وروحه.

— وماذا عن الغد ياسيدي؟

— في لحظة السعادة، لا تشغل فكرك بما سيحدث غداً.

نظراً إلى بعضهما وكأنّ عاصفة من الأفكار اجتاحتها ثم تلاشت في ضحكة ساخرة.

— هكذا إذن : هكذا هو الحال أيها الصديق العزيز.

\*\*\*

أخذها صديقهما إلى جوار القمر، كانت الطريق جميلة وهي تمتد ملتفة بالأفق، حتى وصلا إلى منطقة جبلية مرتفعة، ورغم الصيف، كان الطقس بارداً في هذه الطريق المعوجة الصاعدة إلى الجبل. كانت السيارة تندفع وكأنها أفعى ترقص على أنغام موسيقى ساحرة.

— ها هو جوار القمر..

— أشعر أنني جوار الغيوم السابجة في هذا الفضاء الساحر.

تحدثوا كثيراً وضحكوا، وتراقصت الأفكار على طاولتهم.

في لحظة ضوء، رأى عبد الله امرأة تنظر إليه. عينان مثل موج البحر الذي يطل من نافذة فندقه. وشعر مثبت بشبكة صغيرة، تتعل حذاء خفيفاً وبنطالاً أسود، وبلوزة بلون العيون، تشرب كأس ماء.

— هل أحلم أنا؟ لا يوجد حاجز واضح بين الحلم والصحوة.

لقد تعودت عيناه على النظر في الأفق.. ولكنه الآن ليس في ذهنه سوى ذهنه المراتح من أوجاعه اليومية. ولكنها امرأة رآها.

— وماذا يريد القلب غير امرأة يبحث في عينيها عن أحلامه البعيدة.

هو يعرفها ولا يعرفها، يصمت ليسترد أنفاسه، فقد شعر أن قلبه خارج عن السيطرة، ظلت عيناه تجلسان القرفصاء قرب مقعدها، التفتت إلى عينيها، قفزت من كرسيها:

— أنت عبد الله.. هل تذكرني؟

— ماري لوفان؟

— نعم ماري لوفان.

— أين كنت كل هذه المدة؟

هزّت كتفيها، وابتسمت. كنت عندكم هناك.

آخر مرّة رأيتك فيها على شاشة التلفزيون.

أخذ فمها يرتجف ومنظرها يوحي بأنها على درجة كبيرة من التذكُّر :

— انتظرت طويلاً هناك.. لحظةً أنتظر نهايتي وأخرى كنت أحلم

بالرجوع إلى البيت. كنت أفقد الدفء، شعرت بالاختناق.. كل ما كان

في المكان الذي احتجزت فيه كان يخنقني.

لاحظ أن سحابة من الخوف غطّت وجهها وهو ينصت إليها.

نظرت إليه بتمعّن.

— أنت في بيروت الآن؟

— بضعة أيام فقط وسأعود إلى بغداد.

— لم ترَ بعضنا منذ سنوات.. أنا سأغادر غداً إلى باريس.

— دائماً نلتقي في الزمان والمكان غير المناسبين.

— تمثّيتُ أُنّي التقيتك..

مرةً كنت على شاطئ البحر، وكانت طيور النورس تلاعب موج البحر، تدنو منه، تلامسه، وتهرب بعيدة عنه، تذكرتك وتمنيت أن أكون معك.

— حديثي عن اختطافك في بغداد.

— كان ذلك كما في الأفلام، عندما تتجمد الصورة وتخرج من الزمان. لحظتها كنت في أحد الطرق السريعة ومعني مترجم وكان هو الذي يقود السيارة.. انتبهنا إلى أن رشقات طلقات نارية تصوب نحو سيارتنا وظهرت فجأة سيارتان. نزل منها رجال مسلحون وسحبوني من السيارة ووضعوني في صندوق إحداهما. وانطلقت السيارة بسرعة كبيرة، ثم قلت من سرعتها وعادت إلى سرعتها الأولى ثم توقفت ثم سارت، عندها فقدت الإحساس بالوقت. كل شيء كان يختلط ويدور كما لو أن الزمن فقد توازنه وتحول إلى صور عابرة تعبر من الذاكرة إلى مشاهد أمام العين.

بعدها توقفت السيارة، وطال وقوفها شعرت أنه مرّ زمن طويل، شعرت بالبرد، تكوّر جسمي إلى بعضه. لم أغمض عيني تلك الليلة، ولم أعد بحاجة إلى ما يعنيه النوم بالنسبة إلي من استرخاء لاستعادة القوة. كنت في ذهول أبله دون القدرة على تصوّر ما سيحدث سوى الرغبة بأن يأتيني الموت ليخلصني مما أنا فيه.

صمت وأدارت نظرها عن عبد الله ثم حدقت في عيني، سألتها لست بحاجة إلى الحديث عمّا جرى إذا كان ذلك يعيد لك الإحساس بالألم.

— في يوم لاحق لا أدري إن كان اليوم الثاني أو الثالث اقتادوني إلى غرفة معزولة فيها كرسي وطاولة صغيرة وحزمة أوراق. طلبوا مني الجلوس بعد أن نزعوا الغطاء عن عيني. وأبقوني وحيدة بعد أن أوثقوا يدي.

— هل بقيت فترة طويلة على هذه الحال؟

— إلى أن حلَّ المساء.

— وماذا حصل بعد ذلك؟

— سمعت جلبة خطوات في الخارج، دخل عدد من الرجال إلى الغرفة يحملون المسدسات وآخرون يحملون رشاشات معلقة على أكتافهم. وخيم صمت قاس على المكان، وأحسست بنظرات ثقيلة ومعادية يوجهها إليَّ الرجال المحيطون بي.

— يبدو أن عائق اللغة هو الذي دفع الجميع للصمت.

— ربما، ولكنني كنت حينها أشعر برغبة ملحة في التدخين.

— وهل طلبت سيجارة من أحدهم؟

— لم يكن بينهم مدخن.. بعدها دخل رجل طويل ذو جسم رياضي، وسلّم على الموجودين في الغرفة ويبدو أنه أمرهم أو قائدهم، لا أعرف ولكنه كان يتحدث الفرنسية أيضاً. قال: — حدثيني عن عملك، ولماذا أنت في العراق؟ — أنا صحفية فرنسية، وعملي أن أكون في أماكن صنع الحدث. — يعني أنت تجمعين المعلومات لقوات الاحتلال.

طيور النورس تلاعب موج  
تذكرتك وتمنيت أن أكون

تجمّد الصورة وتخرج من  
حي مترجم وكان هو الذي  
نارية تصوّب نحو سيارتنا  
ون وسحبوني من السيارة  
رة بسرعة كبيرة، ثم قللت  
ثم سارت، عندها فقدت  
ر كما لو أن الزمن فقد  
مشاهد أمام العين.

ت أنه مرّ زمن طويل،  
ض عيني تلك الليلة، ولم  
اء لاستعادة القوّة. كنت  
سوى الرغبة بأن يأتيني

في عينيه، سألتها لست  
الإحساس بالألم.

— ليست هذه مهمتي.. فأنا مصورة تلفزيونية، أزود مؤسستي الإعلامية بالتقارير المصورة عما يحدث هنا، وتوالت الأسئلة والإجابات وتداخلت مع بعضها وبدأت أشعر أن حنجرتي تنغلق، ورحت أفقد قواي، ساد صمت طويل، فتحوا أعينهم بشدة وكانوا يتفحصونني بارتياب.

كانت الصور تدور في ذاكرتي وتسبح أمام عيني، متذكرة طفولتي في ضواحي باريس وأيام الدراسة وأصدقائي وأهلي، عمر طويل يمر في لحظات من الزمن. أشعر أن عيني ثقيلتان، أريد أن أنام أو أن أموت ليس مهماً الآن سوى الخلاص من هذه اللحظة.

مرت أيام طويلة وقاسية وأنا محاطة بالاستجابات والأسئلة، قلت لهم إني أحب العراق، وأنا ضد احتلاله وشاركت في التظاهرات والفعاليات السياسية المطالبة بخروج القوات الأمريكية، وأني أعرف سومر وبابل وأحاول أن أفهم ثقافة هذا البلد وأتعاطف مع مقاومكم للاحتلال، ولكن هذا الكلام لم يكن يجدي نفعاً في لحظتها، رغم أن الاستجواب يستغرق ساعات طويلة أحياناً.

في مساء يوم حاصرنا فيه الغبار والتراب حضر الرجل الطويل قال :

— سنطلق سراحك غداً بعد أن توفرت لدينا معلومات تؤكد صدق إجاباتك وبعد أن تمت العديد من الاتصالات بنا حول أمرك.

كانت تأكلني الأسئلة التي أبحث عن إجابة عنها دون أن أتمكن، ولكنني لم أتوقف عن البكاء.

نظر في عينيها، أخذته بعيداً في زرقتها، ودّ لو أنّه يستطيع أن يحضنها  
بيديه.

ابتسمت وقالت :

— وددت أن أبقى معك، ولكنّها لعبة الزمان والمكان، تدور بنا، ربما  
سنتقي ثانية في مكان آخر وزمان لا يبعر رغباتنا.

— لا، دعيني أعش في لحظة الحلم، لا تبدّديه، سنسهر هذه الليلة.

— ولكنني سأسافر إلى باريس صباح الغد.

— لدينا الليلة.

ينظر في عينيها، ويتلقى استجابة منها.

في المساء يلتقيان عند زاوية الشارع الذي يؤدّي إلى مكان إقامته. المطر

ينهمر فوق رأسيهما وإسفلت الشارع تحوّل إلى سطح مرآة سوداء لامعة.

تبدو فارعة بين الظلام وانبهار الضوء من قطرات المطر المتساقط. لم

يشعر عبد الله أنّ هناك ثقلاً أو حدوداً، لم يجد أمامه إلا الفرح والحبّ. كان

وجهها ساحراً تحت تأثير الضوء الخفيف في صالة الفندق. أمسكت يده،

وسارا إلى المطعم.

قالت: تذكّر أنّك عندما كنت في بغداد، تمنّيت أن تأتي إليّ، وتشعري

بالدفع.

نظر إلى عينيها، بدت متوهجة بحرارة اللحظة.

أكملت حديثها:

صورة تلفزيونية، أزود مؤسستي

هنا، وتوالت الأسئلة والإجابات

تجرتي تنغلق، ورحت أفقد قواي،

كانوا يتفحصوني بارتياح.

ح أمام عيني، متذكّرة طفولتي في

أهلي، عمر طويل يمرّ في لحظات

أنام أو أن أموت ليس مهماً الآن

لاستجابات والأسئلة، قلت لهم

كنت في النظاهرات والفعاليات

ية، وأني أعرف سومر وبابل

مع مقاومتكم للاحتلال، ولكنّ

رغم أن الاستجواب يستغرق

حضر الرجل الطويل قال :

لدينا معلومات تؤكّد صدق

بنا حول أمرك.

عنها دون أن أتمكّن، ولكنني

— منذ لقائنا الأوّل، جعلتني أستحضر ذاكرتي من وراء سنين العمر..  
كنت في علاقة حبّ مع رجل فيه الكثير من روحك.  
— إذن، أنت الآن تلتقين فيه.  
— أنت تفهمني خطأ.. أتظنُّ أنّي سأقبل دعوة المحيي إلى هنا لو كنت  
لا أشعر بأيّة عاطفة خاصّة تجاهك؟  
— لا.. ولكنّها الغيرة بدأت تشقُّ طريقها إليّ رغماً عني.  
بدأت الفرقة الموسيقية في المطعم تعزف من جديد.  
— ألا تودُّ أن ترقص معي؟ أجاها:  
— لا، لم أرقص سابقاً.  
قالت:— عليك أن تجربَ ولو لمرةً واحدة. — لا أحبُّ ذلك.  
— لماذا؟— لم أتعلّمه في حياتي.. لم يكن لديّ الوقت لذلك.  
— لكنّ الرقص يسعدك. رفع الكأس الذي أمامه وقال:  
— إنّه من أنواع الرقص أيضاً.  
في الساعة الحادية عشرة غادر إلى غرفته، أحاطها بذراعيه، فالتصقت به.  
استلقت عارية فوق السرير، بشرتها تتقدُّ تحت الضوء الخافت في الغرفة. يتناول  
وجهها بين يديه، ويزول الحذر عنه، ويموت الاعتقاد بخطأ بعض الأمور.  
أرادت قول شيء، ولكنّه لم يدع لها المجال لتنبس بأيّة كلمة.  
قبّلها، وأحسّ بفمها وأنفاسها، مرّ يديه ببطء على هديها، لمس جبينها  
بشفتيه، متحدّثاً معها بنعومة، وأحسّ بأنّه في الموضع الذي يحدث فيه القطع

دائماً. يتيه في تميجها الناعم وهي ترتعش بين يديه.  
مرّ وقت، لم يعد يعي شيئاً، وبدت الغرفة وكأنها تحترق من وميض  
اللحظة، وهي تتلوى وتلهث وتصرخ نشوة بين يديه.  
ساد بعد ذلك صمت بينهما وكأنهما انزلقا إلى نوم متراخ. قالت:  
— الأمر الأكثر جمالاً ورهبة هو هذه الحياة، التي نحياها، ولا يمكننا  
امتلاكها.

— هو الوقت يا سيدي، وهذه الساعة التي تدقّ وتدقّ، وتدفع بنا إلى  
نهاياتنا.

— تعرف أنني أعشق الليل.

— الليل يعني لي الحنين.

أشعلت سيجارة..

من خلال ضوء سيجارتها شاهد ابتسامة خفيفة تُغطّي وجهها، وبحركة  
من يديه أراح يدها على ذراعه. قالت:  
— كانت ليلة جميلة.

— النساء من أمثالك يكون حُبهنّ مثل حلم بلا أمل. ضحكت،  
وكانت الساعة الرابعة صباحاً عندما أوصل عبد الله ماري لوفان إلى فندقها،  
وقفل عائداً.

بدأت السماء تضيء، وعبقت رائحة الصباح.

تتخضر ذاكري من وراء سنين العمر..  
تبر من روحك.

سأقبل دعوة الحياء إلى هنا لو كنت

لم يبقها إليّ رغماً عني.

ف من جديد.

احدة. — لا أحب ذلك.

كن لديّ الوقت لذلك.

الذي أمامه وقال:

فته، أحاطها بذراعيه، فالتصقت به.

ت الضوء الخافت في الغرفة. يتناول

الاعتقاد بخطأ بعض الأمور.

لجمال لتنبس بأية كلمة.

ديه ببطء على هديها، لمس جبينها

في الموضوع الذي يحدث فيه القطع

(16)

ظهر هذا اليوم الخامس عشر من تموز، دوّى انفجار قوي في المنطقة، تبعته رشقات من إطلاقات نارية، سرى بعدها خير عن قيام مسلّحين بنصب كمين لدورية أمريكية في الشارع العام، وتمكّنوا من إعطاب سيّارة همر.

بعدها تمّت عملية اعتقالات عشوائية شملت أعداداً كبيرة من الشباب، وسدّت الطرق المؤدية للمنطقة، ومنعت حركة السيارات فيها.

وقف عبد الله مساءً عند باب بيته، لاحظ أن جاره قد عاد لتوّه:

— الآن سمحوا لنا بالعودة إلى بيوتنا.

— أين كنت هذه المدّة؟

— كنت في السيارة، منعونا من الحركة ذهاباً وإياباً.

— ألم تحاول التحدّث معهم؟

— لم يسمحوا لنا بالتقرّب من مكان الحادث إطلاقاً.. جاءت قوات

إضافيّة، ونقلوا الجرحى وسحبوا الهمر المحترقة.. ما زال الوضع غير مستقر، وهناك قوات أمريكية جديدة حضرت إلى المنطقة، وأقترح أن لا تغادر المنزل.

— ربّنا يستر.. والحمد لله على السلامة.

دخل عبد الله إلى البيت وكانت أمل وابنتهما مريم في الصلاة، كلّ منهما لائذ بصمته. همست أمل:

— الصمت يقربك أحياناً من أحلامك وأمنياتك، ولكن ما إن يكسر حتى تبدّد تلك الأمنيات والأحلام وراء حواجز قائمة.

— المرء لا يقوى على الاحتفاظ بأحلامه وأمانيه في هذا العالم العجيب الذي نعيشه.

— كثيراً ما أتذكّر فترة القصف الجوّي، والصواريخ العمياء التي يسمونها الذكية.. أنظر ماذا حلّ بنا؟

أهوال الحرب مستمرة وأحلامنا تنهار، ومن فقد إيمانه كان نصيبه الضياع واليأس.

— إنها حرب مستمرة ضدنا ناساً وأرضاً وتاريخاً وذاكرة.

اقتربت ابنته مريم منه وجلست إلى جانبه ويدها كتاب كانت تقرأ فيه:

— قرأت في كتاب التاريخ أننا نتعرّض للغزوات والاحتلال دائماً.

— مرّة قرأت مقالاً لكاتب عراقي سمي الذي تقولينه "الاستهداف

اللجوج لأرض العراق".

فهو بدء الحضارة والظهور الروحي المفعم بطاقات الفعل الإبداعي،

فالإسكندر الكبير، عندما أراد أن ينقل نفوذ دولته إلى العالم القديم بحث عن

بابل لتكون مقرّ قيادته، وهذا ليس اعتباطاً بل لأنّ بابل كانت ملتقى المنجز

الروحي والحضاري وانبعث طاقات إنسانها وكانت مركزاً رياديًا يستقطب الآخرين.

كانت عيناها تحقدان فيه بانتباه كبير، واستمرَّ عبد الله في حديثه:  
— العراق يا ابنتي موجود في أيّ منجز حضاري وروحي في هذه المنطقة.

لذلك تجدينه هدفًا للقوى الأخرى منذ سقطت بابل عام 539 ق.م على يد الأخمينيين بقيادة كورش، ولكنها نهضت ثانية من جديد، ألمّ تقرأي يا حبيبتي كيف كانت البصرة والكوفة وبغداد مدنًا لعلوم اللغة والنحو والصرف والفقه وعلوم القرآن، قراءات وحديثًا وتفسيرًا وفقهاً وأصولاً وكلاماً، ومدناً للأدب والشعر والنقد والفلسفة والكيمياء والفيزياء والحيوان والطب والبصريات والرياضيات والفلك. أوليس العقل الخلدوني والمسعودي والطبري واليعقوبي وغيرهم من المؤرخين من أعلام إبداعاتها؟  
— المغول، أيضاً، احتلوا بغداد يا أبت؟

— المغول أيضاً، في عام 1258م، كانت بغداد مدينة للعلم والعلماء والمكتبات.. وفي كلِّ مرّة كانت تتعرّض فيها بغداد لشرور أعدائها، كانت تسرق أو تحرق كنوزها الفكرية وتدمّر مشاهدتها التراثية. قالت أمل:  
— إذن، التاريخ يعيد نفسه.

— نعم.. تصوّري في أيّام الاحتلال البريطاني لبغداد عام 1917، نُهبت آثار وكنوز من متحف بغداد وكانت تديره موظّفة إنكليزية. وقامت هي

مرّيم في الصلاة، كلّ

ولكن ما إن يكسر

هذا العالم العجيب

تاريخ العمياء التي

إيمانه كان نصيبه

كانت تقرأ فيه:

لال دائماً.

ينه "الاستهداف

لفعل الإبداعي،

القديم بحث عن

ت ملتقى المنجز

بالتعاون مع مستر كوك وهو مستشار بريطاني بتهريب آثار قديمة وإسلامية إلى المتاحف في الخارج، ثم جاءت الحرب الأخيرة 2003 فأجهزت على هذا الصرح الحضاري.

وهذه مفارقة ملتبسة شكلاً ومضموناً، كيف يمكن تشكيل حاضر جديد على أشلاء إرث إنساني ممزق ومنهوب.. أيُّ حاضر بلا ذاكرة ثقافية وحضارية همست مريم:

— هل انتهى كلُّ شيء؟

— لا.. العراق يستطيع أن ينهض من جديد مثل طائر العنقاء الذي يظهر من بين الرماد، فروحه مليئة بقوى حيّة ستعيد سيرورة انطلاقها الحيوي من جديد.

— كيف؟

— الأمر بيدنا وليس بيد غيرنا.

ساد صمت من جديد، لكنَّ أمل قالت:

— الحقيقة بطبعها مرّة وصعبة.. والغريب أنَّ التناقضات تستدعي بعضها، وهنا سرُّ الخدعة الكبرى.

شعرت أمل أنَّ جدران الصالة التي يجلسون فيها قد تباعدت، وأتسع المكان، ولم يعد مثل زاوية صغيرة يأوون إليها كملاذ أو مخبأً يحتضنون فيه من رصاص طائش أو شظايا قبيلة هاون بل أصبح ميداناً لآمال أيام قادمة لعلها تكون مشرقة.

قال عبد الله:

— إننا مُكبلون الآن بأغلال الاحتلال وربما في مثل هذه الحال يصبح  
القلق على المصير والتفكير بالمستقبل عبئاً لا طائل منه.. ولكن التاريخ  
والحاضر يقولان إن المحتل مصيره الرحيل.

لكن انزواءنا في زاوية صغيرة بحثاً عن أمان مفقود لا يؤدي إلى ذلك،  
بل يعمق تأثيراته الضارة ويفقد الناس ذاكرتهم ويجعل البلد نهياً مشاعاً.

فجأة رن جرس الهاتف، ردت أمل:

— لا، معقول.. متى اتخذتم هذا القرار؟

سأتي إليكم مع عبد الله.

ظهرت على وجهها ملامح الارتباك والقلق:

— لنذهب إلى بيت جيراننا أحمد.

— ماذا حل بهم؟

— سيغادرون صباح الغد إلى سوريا. زوجته أصيبت بالتهيار عصبي بعد  
أن رأت اليوم رجلاً يقتل على ناصية الطريق.. لم تعد تتحمل ما تراه يومياً.  
— توقعت ذلك.

كان أحمد يجلس شارداً الذهن وعينا زوجته تواجهانه، فيما بدا ولداه  
الاثنين مرحين بقرار والدهم.

قال أحمد: هؤلاء لا يدركون ما يدور حولهم.. المهمّ عندهم السفر  
ولا شيء غيره.

بطاني بتهرب آثار قديمة وإسلامية  
ب الأخيرة 2003 فأجهزت على

وناً، كيف يمكن تشكيل حاضر  
وب.. أي حاضر بلا ذاكرة ثقافية

ن جديد مثل طائر العنقاء الذي  
س حية ستعيد سيرورة انطلاقها

غريب أن التناقضات تستدعي

سون فيها قد تباعدت، وأتسع  
كملاذ أو محباً يحتمون فيه من  
ح ميدانا لآمال أيام قادمة لعلها

رَنَّ الهاتفُ النقال، كانت مريم على الجانب الآخر حيث بقيت في البيت ولم تأت معهم إلى بيت جيرانهم قالت بصوت مرتبك:  
— بابا.. الحقني، الأمريكان عند باب بيتنا وأقفلت الهاتف.  
حاول الاتصال بها، كان الخطُّ عندها مشغولاً.  
رَنَّ هاتفه ثانية:

— بابا، الله يخليك، الأمريكان عند باب بيتنا.  
وأقفلت الخطُّ دون أن تعطيه فرصة للإجابة، قرَّر أن يخرج إليها، فتح باب الجيران، وإذا بضوء أخضر يوجه إلى رأسه مع صوت يناديه بلغة انكليزية:

— أدخل، وإلا ستقتل.  
عاود الاتصال بمرم وقبل أن يتحدَّث إليها قالت:  
— الحقني يا بابا، وأغلقت الهاتف.  
نظر عبر ستائر الشبَّاك إلى الخارج: مدرَّعات أمريكية وسيارات همر تطوَّق المكان.

اتصل بها مرَّةً أخرى، وكانت مرتبكة جدًّا وتصرخ:  
— أنا وحدي، يا بابا.. سيكسرون الباب.  
— اهْدأي يا بابا.. وافتحي الباب، وعند دخولهم.. أبلغهم بمكاني، واطلبي منهم أن يسمحوا لي بالهجيء إلى البيت. وأنا سأحاول أيضاً.

كادت أنفاسه تتوقف، وقد فقد المبادرة، ومريم تصرخ تطلب حضوره،  
وخروجه يعني قتله، مرّت دقائق كأنها سنوات العمر كلّها، شعر خلالها أنّه  
ضعيف لا يقدر على نجدة ابنته.

ساد صمت في المكان ولا أحد لديه القدرة على عمل شيء.. طفلة  
مذعورة وأب على مسافة موت منها.

صوت هاتفه قطع لحظة الصمت.

— بابا يريدونك أن تأتي، وقد أخبرتهم بمكانك.

— سأتي حالاً.

— لكنّهم يقولون عندما يخرج من البيت فليرفع يديه إلى أعلى.

— إنهم خائفون منّا، فلا تخافي منهم.

البيت كان ممتلئاً بالجنود، ومريم تقف حائرة بينهم.

— هذا هو بابا.

قال واحد منهم:

— ماذا كنت تفعل خارج بيتك؟

— عند جيراني، أودّعهم. فهم مغادرون غداً إلى سوريا.

— لماذا يغادرون؟

— يبدو أنّ نسّمات الحرّيّة لا تروق لهم.

— أنت تسخر؟

— لا، الناس عندما لا تجد أماناً في بلدها فتبحث عنه في مكان آخر.

ث بقيت في البيت

يخرج إليها، فتح

صوت يناديه بلغة

وسيارات همر

أبلغهم بمكاني،

أيضاً.

— هل لديك سلاح؟

— لا.

— ستعرضُ نفسك للاعتقال إن كانت الحقيقة غير ذلك.

— تستطيع أن تفعل ما تشاء بحكم سلطتك.

— ماذا تعمل؟

— كنت أعمل.. أما الآن فلا.

أراد أن يوجّه له سؤالاً عن هذا الذعر الذي سببه لابنته ولكنه تذكر أن طرح الأسئلة أحياناً يجلب لصاحبها المتاعب، فصمت.

أكمل الجنود تفتيش الطابق الأول من المنزل، وطلب منه أن يصعد معهم للطابق الثاني.

دخلوا إلى غرفة المكتبة:

— ما هذه؟

— غرفة مكتبي.

— كتب وجهاز حاسوب وأشرطة CD، ما بها؟

جلس الضابط وبدأ بتشغيل جهاز الحاسوب، وضع أول شريط، فانطلق

صوت:

"ابعد عني يا ابن الناس، أنا مية جرح مجروح"

— ما هذا؟

— هذه أغنية لحنها مطرب عراقي مشهور اسمه كاظم الساهر لمطربة  
مصرية.

أخرج الشريط، ووضع شريطاً آخر:

— موسيقى.. أظنُّ هذه موسيقى غربية.

— أها لجايكوفسكي.

— أنت تسمع موسيقى غربية.. جيد.

— الموسيقى كانت تعزف في معابد بابل قبل الميلاد بمئات السنين.

— وما هذه الكتب؟

— معرفة ونافذة للثقافة، تنتعش فيها الروح.

— هل فيها فكر متطرف؟

— فيها موسيقى وتاريخ وشعر وروايات من كلِّ الدنيا وفيها رسومات

لفنانين تشكيليين..

شعر عبد الله بسخرية الموقف الذي هو فيه، يتحدث عن الكتب،

والأسلحة مصوبة نحوه.

قال الضابط:

— أنت لديك الكتب، ونحن لدينا سلطة القوة، وأشار إلى سلاحه.

— ولولاها لما استطعت أن تقتحم بيبي.

— نحن لحمايتكم وحریتکم.

— ولكن أية حرية تلك التي تخوّلك اقتحام بيتي. وتمنعي من الوصول إلى

ابنتي الخائفة.

— نحن لا نريد إزعاجكم، ولكن هذا هو عملنا.. بيتكم جميل.

— وطني جميل أيضاً.. وتستفزّه سلطة الغرباء عليه.

هزّ رأسه وضغط على شفّتيه وأمر جنوده بالانصراف، فيما ارتمت مريم

في حضن أبيها تنتظر مغادرتهم.

بغداد — كانون الاول 2008



فضاءات  
للنشر والتوزيع

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة

عمان - الأردن - تليفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٠٨٨٥

[dar\\_fadaat@yahoo.com](mailto:dar_fadaat@yahoo.com)

